جامعة الأنبار

كلية العلوم الإسلامية

قسم التفسير وعلوم القرآن

أخلاق القرآن

المرحلة الأولى/ الفصل الأول

للعام الدراسي ٢٠١٨/٢٠١٩

اعداد اللجنة العلمية

١٤٤٠هـ ٢٠١٨م

- الأخلاق (١)

لا شكّ بأنّ الأخلاق هي سمة المُجتمعات الرّاقية المُتحضّرة، فأينما وُجِدَت الأخلاق فثمّة الحضارة والرّقي والتّقدم، ولما أرسل الله تعالى نبيّه محمّد -عليه الصّلاة والسّلام- جعل من مَهمّات دعوته وصميم رسالته أن يُتمّ الأخلاق ويُكمّلها، فالأخلاق موجودة راسخةٌ برسوخ الأمم ونشوئها قبل النبوّة والبعثة، غير أنّها كانت ناقصةً مسلوبة الروح والمضمون، فجاءت الشّريعة الإسلاميّة لتُكمّلها وتُلبسها لباساً يُجمّلها ويَجعلها في أحسن صورة، والأخلاق الحسنة هي حالة إنسانيّة سلوكيّة يسعى كثيرٌ من النّاس الباحثين عن الكمال للوصول إليها وإدراكها، والأخلاق ترفع درجة الإنسان في الحياة الدّنيا وفي الآخرة، فالنّاس يُحبّون صاحب الأخلاق الحسنة الحميدة ويتقرّبون إليه ويتمنّون صحبته وصداقته، وهي كذلك ترفع درجة المُؤمن عند ربّه جلّ وعلا، بل وتجعله من أقرب النّاس مَجلساً إلى رسول الله يوم القيامة، وقد ورد عن النبيّ -عليه الصّلاة والسّلام- أنه قال: (إنَّ أحَبَّكم إليَّ وأقرَبَكم منّي في الآخرةِ أحاسِنُكم أخلاقًا وإنَّ أبغَضَكم إليَّ وأبعَدَكم منّي في الآخرةِ أسوَؤُكم أخلاقًا المُتشدِّقونَ المُتفيهقونَ الثَّرثارونَ)

- مفهوم الأخلاق

الأخلاق: هي المبادئُ والقواعدُ المُنظِّمةُ للسُّلوكِ الإنسانيّ، وقد دعا الإسلام إلى الالتزام بالأخلاق الحميدة والتّمثُّل بها، وحثّ على حفظها وصيانتها، وقد نفت الشريعة الإسلامية صفة الكمال العقائديّ والدينيّ عمّن يُخالف تلك الأخلاق ويُناقضها ولا يلتزم بها.

- الأخلاق في اللغة

الأخلاقُ : جَمع خُلُق: وهو الطبع والسَّجية والدِّين.
وتعني الأخلاق أيضاً: حالٌ للنَّفْس رَاسِخَةٌ تَصدُرُ عنها أفْعالُ الخَير أو الشرِّ من غير حاجةٍ الى تُفكّر أو تمهّل، بل تصدر بناءً على ما يتلازم مع الطبع والعادة.
والاخلاق: مجموعةُ من الصِّفاتِ البشريَّةِ والسُّلوكياتِ التي يمكن وصفها بالحُسنِ أو القُبْح.

- **الأخلاقُ اصطلاحاً**

يمكن تعريف الأخلاق بجملةٍ من التعريفات الاصطلاحيّة، وذلك بناءً على نظرة العلم الخاص بذلك التعريف للأخلاق، ومن تعريفاتها في اصطلاحات العلماء ما يأتي:

١- **الأخلاق في الاصطلاح الإسلاميّ:** يمكن تعريف **الأخلاقُ** في الاصطلاح الإسلاميّ أنّها: مَجموعَةٌ من المبادئ والقواعد التي يُحدِّدُها الوحيُ الذي يكون مصدره الله -سبحانه وتعالى- أو الرسول -عليه الصّلاة والسّلام ، وتقوم تلك القواعد بتنظيمِ حياةِ النّاسِ جميعاً، وتوجيه سلوكياتهم على نحوٍ يُحقِّقُ الغايَةَ من وُجودِهم، ويمكن بها تمييزهم عن باقي البشر، ممّا يجعل حياتهم تسير وفق قواعد وأحكام الدين وضوابطه.

وتعريف الاخلاق عند العلماء كما يأتي:

- عرّف الجَرجاني **الأخلاق** بأنّها: (الطِّباعُ والسُّلوكاتُ التي تَصدُر بعفوية مطلقة عن الإنسان دون انتظار رأي أو تمهّل في اتّخاذ القرار للتصرّف بتلك السلوكيّات، وتعتَمدُ تلك السلوكيّات بشكلٍ خاصّ على ما يَرسخُ في النَّفْسِ مِن حُسْنٍ وقُبْحٍ، ويَنْعَكِسُ عَنها مِن غَيْر فِكرٍ وتدبُّرٍ ورَويَّة)

- **علم الأخلاق** "علمٌ موضوعه أحكام قيمة تتعلق بالأعمال التي تُوصف بالحسن أو القُبح". والمعنى أننا إذا أطلقنا كلمة الأخلاق إنما نعني بها الحسن، أو الجانب الحسن، وكذلك من الممكن أن نقول: الأخلاق الذميمة أو السيئة.

ومن الواضح أن إضافة كلمة بعد كلمة الأخلاق نصف بها الأخلاق يجعلها حسب ذلك الوصف الحسن أو السيء، والإسلام يدعو إلى الأخلاق الكريمة، وينهى عن مذمومها

علم الأخلاق: هو جملة القواعد والأسس التي يعرف بواسطتها الإنسان معيار الخير في سلوك ما «أو مدى الفساد والشر المتمثل في سلوك آخر. والأخلاق كعلم معياري يكون وفق هذا المفهوم علما خاصّا بالإنسان دون باقي المخلوقات وهو يشكل منهاجه السلوكي القائم على مجموعة من المبادىء والقيم التي تحكم قناعات الفرد»

تعريف الاخلاق عند القدامى:

علم الأخلاق «علم يعرف به حال النفس من حيث ماهيتها وطبيعتها وعلة وجودها وفائدتها وما هي وظيفتها التي تؤديها وما الفائدة من وجودها، ويبحث عن سجاياها وأميالها وما ينقلها بسبب التعاليم عن الحالة الفطرية، وذكر أن هذا أول علم تأسس منذ بدء الخليقة» .

تعريفات الأخلاق عند المحدثين:

علم الأخلاق عند المحدثين بأنها «تصور وتقييم ما ينبغي أن يكون عليه السلوك متمشية في ذلك مع مثل أعلى أو مبدأ أساسي تخضع له التصرفات الإنسانية ويكون مؤازرا للجانب الخيّر في الطبيعة البشرية» .

ويرى عبد الودود مكروم **أن الأخلاق** هي «مجموعة القواعد السلوكية التي تحدد السلوك الإنساني وتنظمه، وينبغي أن يحتذيها الإنسان فكرا وسلوكا في مواجهة المشكلات الاجتماعية والمواقف الخلقية المختلفة، والتي تبرز المغزى الاجتماعي لسلوكه بما يتفق وطبيعة الآداب والقيم الإجتماعية السائدة» .

٢- **الأخلاق في الاصطلاح الفلسفيّ:** عرَّف بعض علماء الفلسفة كأَرسطو وأفلاطون وغيرهم أنّ الأخلاقَ هي: (القدرة على التّمييز بينَ الخيرِ والشَّر عند الأفراد)، ويمكن تعريفها أيضاً من المنظور الفلسفي بأنّها :(الفضيلة التي يَتغلَّبُ فيها الجانِبُ الإلهيُّ على جانِبِ الشهوات وتفضيل المحبوبات والمرغوبات)

ويَرى بعض الفلاسفة أنَّه يمكن تعريف الأخلاق بأنّها: (القدرة على ضبط الشَّهَواتِ بالعَقلِ ومُمارسَة الفَضائِل والمكارم من الصفات وتمييز الحسن منها من القبيح)

- تعريف الخلق (٢)

الخُلق في اللغة: هو العادة، والسجيَّة، والطَّبع، والمروءة، والدِّين.

قال ابن منظور: (الخُلُقُ بضم اللام وسكونها هو الدين والطبع والسجية، والجمع أخلاق، والخلق: السجية" وقال: "الخلُقُ –بضم اللام وسكونها: هو الدِّينُ، والطبعُ، والسجيةُ".

وحقيقته أن صورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها)

وقال ابن فارس: ومن هذا المعنى (أي تقدير الشيء) الخلق، وهو السّجية لأن صاحبه قد قدّر عليه، يقال: فلان خليق بكذا (أي قادر عليه وجدير به) ، وأخلق بكذا أي ما أخلقه، والمعنى هو ممن يقدّر فيه ذلك، والخلاق: النصيب لأنه قد قدّر لكل أحد نصيبه

والخلق اصطلاحًا: قال الجرجاني: "الخُلُق" عبارة عن هيئة للنفس راسخة، تَصدُر عنها الأفعال بسهُولة ويُسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كان الصادر عنها الأفعال الحسنة، كانت الهيئة خُلُقًا حسنًا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة، سُمِّيت الهيئة التي تصدر عنها هي مصدر ذلك خُلُقًا سيئًا".

وعرفه ابن مسكويه في (تهذيب الأخلاق) بقوله: (الخلق: حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية، وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعيًا من أصل المزاج، كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب ويهيج من أقل سبب، وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء، أو كالذي يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه، أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكا مفرطا من أدنى شيء يعجبه، وكالذي يغتم ويحزن من أيسر شيء يناله. ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدرّب، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر، ثم يستمر أولا فأولا حتى يصير ملكة وخلقا)

وذهب الجاحظ إلى (أن الخلق هو: حال النفس، بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار، والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعا، وفي بعضهم لا يكون إلّا بالرياضة والاجتهاد، كالسخاء قد يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ولا تعمل، وكالشجاعة والحلم والعفة والعدل وغير ذلك من الأخلاق المحمودة)

وقال عبد الرحمن الميداني: ان الخلق «صفة مستقرة في النفس فطرية أو مكتسبة ذات آثار في السلوك محمودة أو مذمومة» ؛ «فالخلق منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم، والإسلام يدعو إلى محمود الأخلاق، وينهى عن مذمومها .

- مصدر الأخلاق (٣)

(الفطرة ، الاكتساب ، الدين)

١- الفطرة :

الإنسان مجبول ومفطور على حب الأخلاق الحسنة وكره الأخلاق السيئة. ومهما اختلف الناس أفرادا أو أمما في تقييم بعض الأفعال وبعض التصرفات, فإن هناك فضائل وأخلاقا يشتركون جميعا في حبها واحترامها, كالصدق والأمانة والوفاء والإحسان والتواضع والعدل وهناك رذائل وأخلاق سيئة يشترك الناس جميعا في كراهيتها واستهجانها, كالظلم والعدوان والكبر والكذب والخيانة والأثرة والغدر فاشتراك الناس بمختلف أجناسهم وأديانهم وأوطانهم وعصورهم وطبقاتهم وأحوالهم في هذه الميول الخلقية, وتجذُّرها في نفوسهم وسلوكهم, دليل واضح على فطريتها وأصالتها فيهم.

فللإنسان حاسة خلقية تعمل مثل حواسه الأخرى. بل إن هذه الحاسة الخلقية تعتبر من الحواس المميزة للإنسان. ولذلك وُصف الإنسان بأنه كائن أخلاقي. بل يمكن أن يقال: "إن الإنسان هو الكائن الأخلاقي الوحيد", باعتبار "أن الإنسان لا يكون إنسانا مميزا من سائر الكائنات, بغير مَثل أعلى يَدين له بالولاء "

والأخلاق فطرية ومكتسبة و (حظوظ الناس من الطبائع النفسية التي فطروا عليها حظوظ متفاوتة؛ هذه حقيقة ملاحظة لدى كل من يتعامل مع الناس، وتكاد تكون من البديهيات. فالناس كما تتفاوت حظوظهم من الذكاء الفطري، وتتفاوت حظوظهم الجسدية قوة وضعفاً، وطولاً وقصراً، وبدانة ونحولاً، وصحة وسقماً، وجمالاً ودون ذلك، فإن حظوظهم من الطبائع النفسية الخلقية وغير الخلقية حظوظ متفاوتة بالفطرة.

إننا نجد مثلاً الخوف الفطري عند بعض الناس أشد منه عند فريق آخر، ونجد الطمع الفطري عند بعض الناس أشد منه عند فريق آخر، ونجد فريقاً من الناس مفطوراً على سرعة الغضب، بينما نجد فريقاً آخر مفطوراً على نسبة ما من الحلم والأناة وبطء الغضب، ونجد حب التملك الفطري عند بعض الناس أقوى منه عند بعض آخر.

وقد جاء في أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ما يثبت هذا التفاوت الفطري في الطباع الخلقية وغيرها.

منها قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذي: ((إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى، ألا وإن منهم البطيء الغضب سريع الفيء، والسريع الغضب سريع الفيء، والبطيء الغضب بطيء الفيء، فتلك بتلك، ألا وإن منهم بطيء الفيء سريع الغضب، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء، وشرهم سريع الغضب بطيء الفيء)).

ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)).

ومنها ما رواه الإمام أحمد والترمذي وأبو داود بإسناد صحيح عن أبي موسى قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب)).

وفي قول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((الناس معادن)) دليل على فروق الهبات الفطرية الخلقية، وفيه يثبت الرسول صلى الله عليه وسلم أن خيار الناس في التكوين الفطري هم أكرمهم خلقاً، وهذا التكوين الخلقي يرافق الإنسان ويصاحبه في كل أحواله. فإذا نظرنا إلى مجموعة من الناس غير متعلمة ولا مهذبة، أو في وسط مجتمع جاهلي، فإنه لابد أن يمتاز في نظرنا من بينهم أحاسنهم أخلاقاً، فهم خيرهم معدناً، وأفضلهم سلوكاً اجتماعياً، ثم إذا نقلنا هذه المجموعة كلها فعلمناها وهذبناها وأنقذناها من جاهليتها، ثم نظرنا إليها بعد ذلك نظرة عامة لنرى من هو أفضلهم، فلابد أن يمتاز في نظرنا من بينهم من كان قد امتاز سابقاً، لأن العلم والتهذيب والإيمان تمد من كان ذا خلق حسن في أصل فطرته، فتزيده حسن خلق واستقامة سلوك وتزيده فضلاً، ثم إذا جاء الفقه في الدين كان ارتقاء هؤلاء فيما فضلوا به ارتقاء يجعلهم هم السابقين على من سواهم لا محالة، وبذلك تكون فروق النسبة لصالحهم فضلاً وكرماً.

ومنها ما رواه الإمام أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله تعالى قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم)).

٢- الاكتساب :

في كل مجتمع, تتشكل عبر العصور أعراف وقيم, تكون محل تراض وتوافق عام, ومحل احترام والتزام, وتصبح جزءا من المنظومة الأخلاقية للمجتمع, ويصبح انتهاكها والاستخفاف بها سلوكا معيبا وربما معاقبا عليه. كما أن التمسك بها يكون خُلُقا محمودا ومقدرا. وهذه الأخلاق العُرفية والعادات الكريمة, يكون لها في الأساس استمدادٌ من المصدرين السابقين وتأثر بهما, ولكنها تستمد صِيَغَها العملية وتعبيراتها الظرفية, من الفكر والثقافة والتجربة البشرية. فهي من هذه الناحية تجسد الخصوصية الأخلاقية للأمم والشعوب , وللعهود والأحقاب التاريخية. ولذلك نجدها أكثر قابلية للاختلاف والتمايز بين الأمم, وأكثر خضوعا للتغير عبر العصور, ولو بتدرج بطيء في الغالب.

ويُرجِع الماوردي تشَكُّل الأخلاق وانبثاقها إلى أصلين هما الطبع والتطبع؛ فالأخلاق "بعضها خُلق مطبوع, وبعضها خلق مصنوع؛ لأن الخلق طبع وغريزة, والتخلق تطبع وتكلف فتصير الأخلاق نوعين: غريزية طُبع عليها, ومكتسبة تَطَبَّع بها " .

على أن الأخلاق بنوعيها لا تستغني عن المعالجة والرعاية والصيانة. "قال بعض الحكماء: ليس شيء عولج إلا نفع وإن كان ضارا, ولا شيء أهمل إلا ضر وإن كان نافعا" .

هل الناس لهم قابلية لاكتساب الأخلاق؟ هنا (يرد سؤالان: الأول: إذا كانت الأخلاق طباعاً فطرية، فلماذا وضع الإنسان تجاهها موضع الابتلاء والتكليف؟

الثاني: إذا كانت الطبائع الإنسانية هي المهيمنة على سلوك الإنسان الشامل للسلوك الأخلاقي وغيره، وهذه الطبائع ذات نسب فطرية متفاوتة، فما هي فائدة التربية الأخلاقية؟ وهل باستطاعة الإنسان أن يعدل من طبائعه الخلقية الفطرية، ويكتسب من الأخلاق ما ليس في فطرته؟

... في الإجابة على السؤالين:

لدينا حقيقة ثابتة لابد من ملاحظتها في مجال كل تكليف رباني: هي أن الله تبارك وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، فمسؤولية الإنسان تنحصر في نطاق ما يدخل في وسعه، وما يستطيعه من عمل، أما ما هو خارج عن وسع الإنسان واستطاعته فليس عليه مسؤولية نحوه، يضاف إلى ذلك أن نسبة المسؤولية تتناسب طرداً وعكساً مع مقدار الاستطاعة.

فالقوي يأتي امتحانه على نسبة قوته، وكذلك الضعيف يأتي امتحانه على نسبة ضعفه، وامتحان الذكي على مقدار ما منحه الله من ذكاء، وامتحان الغبي على مقدار غبائه:

أما صور الامتحان فكثيرة مختلفة، فبعض الناس يمتحنه الله بالغنى، وبعضهم يمتحنه بالفقر، وبعضهم يمتحنه بأن يكون قائداً، وبعضهم يمتحنه بأن يكون جندياً، وبعضهم يمتحنه بكثرة البنين، وبعضهم يمتحنه بكثرة البنات.

والله تعالى يمتحن كل إنسان بما يناسبه، وعلى مقدار ما منحه من هبات وعطايا، وعلى مقدار استطاعته الجسدية والنفسية، ثم تكون المحاسبة بعد ذلك على مقدار نسبة الامتحان، ويكون الجزاء العادل على مقدار الطاعة والجهد المبذول نفسياً وجسدياً، أو على مقدار المعصية والجهد الذي كان يمكن بذله في الطاعة.

وميزان الله تعالى لا يضيع منه مثقال ذرة، والعلم الإلهي لا يعزب عنه صغيرة ولا كبيرة من نية أو عمل، والقانون الذي يطبقه الله على المكلفين من عباده، هو المعلن بقوله تعالى: فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة: ٧ – ٨]، والمعلن بقوله: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا [الطلاق: ٧] وقوله: لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا [البقرة: ٢٨٦].

فما كان من الطباع الفطرية قابلاً للتعديل والتبديل، ولو في حدود نسب جزئية، لدخوله تحت سلطان إدارة الإنسان وقدرته، كان خاضعاً للمسؤولية، وداخلاً في إطارها تجاه التكاليف الربانية، وما لم يكن قابلاً للتعديل والتبديل، لخروجه عن سلطان إرادة الإنسان وقدرته، فهو غير داخل في إطار المسؤولية تجاه التكاليف الربانية.

وبناء على ذلك فإننا نقول وفق المفاهيم الدينية: لو لم يكن لدى كل إنسان عاقل قدرة على اكتساب حد ما من الفضائل الأخلاقية، لما كلفه الله ذلك.

وليس أمر قدرة الإنسان على اكتساب حد ما من كل فضيلة خلقية بعيداً عن التصور والفهم، ولكنه بحاجة إلى مقدار مناسب من التأمل والتفكير.

أليست استعدادات الناس لأنواع العلوم المختلفة متفاوتة، فبعضهم أقدر على تعلم الفنون الجميلة من بعض، وبعضهم أقدر على تعلم العلوم العقلية من بعض، وبعضهم أقدر على حفظ التواريخ والحوادث أو حفظ النصوص من بعض؟

ونظير هذا الذي نشاهده في الاستعداد للتعلم، نشاهد في الاستعداد الإنساني لاكتساب الأخلاق، فما من إنسان عاقل إلا ولديه قدرة على اكتساب مقدار ما من فضائل الأخلاق، وفي حدود هذا المقدار الذي يستطيعه يكون تكليفه، وتكون مسؤوليته، ثم في حدوده تكون محاسبته ومجازاته.

إن أسرع الناس استجابة لانفعال الغضب، يستطيع بوسائل التربية أن يكتسب مقداراً ما من خلق الحلم، ومتى صمم بإرادته أن يكتسب ذلك فإنه يستطيعه، لذلك فهو مسؤول عن اكتساب ما يستطيعه منه، فإذا هو أهمل تربية نفسه، وتركها من غير تهذيب تنمو نمو أشواك الغاب، فإنه سيحاسب على إهماله، وسيجني ثمرات تقصيره.

والمفطور على نسبة كبيرة من الجبن، يستطيع أن يكتسب بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم مقداراً ما من خلق الشجاعة، قد لا يبلغ به مبلغ المفطور على نسبة عالية من الشجاعة، ولكنه مقدار يكفيه لتحقيق ما يجب عليه فيه أن يكون شجاعاً، وضمن الحدود التي هو مسؤول فيها ، وهكذا نستطيع أن نقول: إن أية فضيلة خلقية، باستطاعة أي إنسان عاقل، أن يكتسب منها بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم، المقدار الذي يكفيه لتأدية واجب السلوك الأخلاقي .

٣- الدين

فمن المعلوم أن الأخلاق والتوجيهات الخلقية، هي الجزء الأعظم من جميع الأديان وتعاليمها. وفي جميع العصور وفي جميع الأمم، نجد الأخلاق قرينة الدين والتدين، ونجد الدين والتراث الديني، يشكلان -دائما- أكبر مدد وأقوى سند للقيم الخلقية، وللمعايير الخلقية، وللممارسات الخلقية. فدُعاة الأخلاق، وحُماة الأخلاق، هم الأنبياء وأتباع الأنبياء .وإذا كانت الجِبِلّة هي منبع الأخلاق المفطورة، فإن الدين هو مصدر الأخلاق المسطورة. فلا نعرف خُلقا حسنا يتمسك الناس به أو يذكرونه ويتطلعون إليه، إلا وهو منصوص عليه في الدين وفي التراث الديني .

وشمل الدِّينُ الإسلاميّ كافّة الأخلاق والمكارم الحميدة والخصال الطيّبة، وحثَّ عليها، وحبّب من التخلّق بها، وقد استُمِدّت تلك الفضائل والأخلاق من نصوص القرآن الصريحة وأحاديث السنة الصحيحة، ومن هنا تنبع أهميّتها، ولذلك فإن تلك الأخلاق تمتاز وتتّصف بمجموعة من الصّفات التي تجلعها أثبت من غيرها من الدّيانات والأعراف، وهي راسخةٌ ثابتةٌ بثبوت تلك المصادر، وأهمّ ما يُميّز تلك الأخلاق ما يأتي:

١- الخلود والاستمراريّة: فإن جميع الأخلاق الواردة في السُنّة والقرآن هي صفات خالدة باقية ما بقيت تلك النصوص، وحيث إنّ الله قد حفظ كتابه من التحريف والتّزييف، وحفظ سُنّة نبيه بحفظه، حيث هيّأ لها رجالاً نقّحوها ونقّوها ممّا دخل فيها عبر السنين من الشّوائب، فإن تلك الأخلاق المُستمَدّة منها ستبقى خالدةً راسخةً

٢- الصّدقِ والدقّة: فإن منظومة الأخلاق الإسلاميّة، كما سبق الإشارة إليه، ربانيّة المصدر، وهي بذلك تتّصف بالصّدق والدقّة، حيث إنّ جميع ما جاء به ينطبق عليه هاتين الصفتين، وبما

أنّ الأخلاق جزءٌ ممّا جاء به الوحي، فهما يتميّزان ويتّصفان بهاتين الصفتين اللّتين لا تنفكّان عنهما مُطلقاً، قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ).

٣- الشُّمولِ والتَّكامُلِ: فإنّ الشريعة الإسلاميّة إنّما جاءت لتُصحِّح الأخلاق التي كانت سائدةً في المُجتمع الجاهليّ وتضبطها بضابط التديُّن، وتدعو وتجمع ما لم يكن موجوداً في تلك المرحلة، فكانت الأخلاق الإسلاميّة شاملةً مُتكاملةً، قال المصطفى -عليه الصّلاة والسّلام- في ذلك: (إنَّما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ).

٤- التَّوافُقِ العَقليّ والفِطْريّ: فإنّ جميع ما جاء في الشريعة من الأخلاق والفضائل إنّما جاء بحسب ما يُوافق العقل البشريّ والفطرة السّليمة، وهي تتناسب مع جميع الأمكنة والأزمنة، ولا تناقض العقل والمنطق والأعراف والعادات مُطلقاً

٥- الأخلاق الإسلامية مرتبطة بالجانب العملي: فإن المنظومة الأخلاقيّة في الإسلامِ ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالجانب العمليّ في حياة المُسلم، حيث إن جميع التكاليف قد دعت بمُفردها ومُجملها إلى مجموعة من القيم والأخلاق والآداب، فلا يكون تطبيق العبادة كاملاً ما لم يجرِ تطبيق ما دعت إليه من فضائل وأخلاق، يقول المصطفى -عليه الصّلاة والسّلام- في الصحيح: (أكمَلُ المؤمنينَ إيماناً أحسَنُهم أخلاقاً)

اهمية الاخلاق

لا يكاد يختلف أحد على أنّ الأخلاق الحسنة من الأمور المهمّة التي لا يستغني عنها أيّ مجتمع، أو جماعة، أو فرد، فلا يستقيم التواصل والاتصال بين النّاس على نحوٍ سليمٍ، ولا تنتظم العلاقات على تنوّعها دون الأخلاق الحَسنة، فإذا انعدمت أو تخلّف النّاس عنها وعن التحلّي بها، وقع المجتمع برُمّته والنّاس كلّهم في حرجٍ، وتأثّرت حياتهم تأثّراً بالغاً؛ فالأخلاق الحَسنة هي عمَاد المجتمعات والأُمم، وهي التي تَقِيها من الانحرافات، وتعصمها من الفساد والانزلاق في وحْل التخلّف الثقافي والحضاري، وتتعدّى أهميّة الأخلاق الفرد لتشمل المجتمع بأسره

واما أهمية الأخلاق في الإسلام فتتمثل بالأخلاق الحسنة والكريمة، وكذلك العديد من الأمور التي تتحصّل بحسن الخلق، وفيما يأتي بيان بعضها:

- إنّ الأخلاق تعدّ الغاية التي من أجلها أرسل النبي محمدٍ صلّى الله عليه وسلّم، حيث ورد عنه، أنّه قال: (إنما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ، و في روايةٍ صالحَ الأخلاقِ)، وذلك يدل على أهمية الأخلاق، إلّا أنّ العقيدة الإسلامية، وعبادة الله تعالى، أهم من الأخلاق، إلّا أنّ الأخلاق الكريمة من الأمور الهامة، وذلك بسبب ظهورها للناس، فإنّ العقيدة غير ظاهرةٍ؛ لأنّ محلها القلب، كما أنّ العبادات لا تظهر جميعها بشكلٍ واضحٍ، لكنّ الأخلاق واضحةٌ من خلال تعامل الشخص مع غيره، وبذلك فإنّ الحكم على الدين مبنيٌ بالحكم على الأخلاق، كما أنّ الأخلاق من أنجح وأقوى الوسائل في الدعوة إلى الله تعالى، ونشر رسالة الإسلام، وبعدم الامتثال بالأخلاق الحسنة، صرفاً للناس عن الإسلام، ومبادئه، وشريعته.

- إنّ الإسلام عظّم الأخلاق الحسنة، حيث إنّ الأخلاق في الإسلام، لا تعدّ سلوكاً فقط، وإنّما هي في الحقيقة عبادةٌ يكتب عليها الأجر من الله تعالى، كما أنّها من مجالات التنافس بين العباد، وهي من عوامل التفاضل بين الناس يوم القيامة، حيث قال الرسول صلّى الله عليه وسلّم: (إنَّ أحَبَّكم إليَّ وأقربَكم منّي في الآخرةِ؛ أحاسِنُكم أخلاقًا)، والأخلاق تعدّ من أكثر الأعمال وزناً وقيمةً، ومما يدل على ذلك قول الرسول صلّى الله عليه وسلّم: (ما شيءٌ أثقَلَ في ميزانِ المؤمنِ يومَ القيامَةِ من خُلُقٍ حسنٍ)، وإنّ أجر الأخلاق؛ كأجر العبادات وثوابها، كما أنّ الأخلاق من أسباب دخول الجنة.

- إنّ الأخلاق تعدّ الأساس الذي يقوم عليه بقاء الأمم، حيث إنّ بقاء الأمم مرتبطٌ ببقاء الأخلاق، وانهيار الأخلاق، يؤدي إلى انهيار الأمة، حيث قال الله تعالى: (وَإِذا أَرَدنا أَن نُهلِكَ قَريَةً أَمَرنا مُترَفيها فَفَسَقوا فيها فَحَقَّ عَلَيهَا القَولُ فَدَمَّرناها تَدميرًا).

- إنّ الاخلاق من الأسباب التي تؤدي إلى نشر المحبة، والمودة بين الناس، وإنهاء العداوة والخصومة، ومما يدل على ذلك قول الله تعالى: (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ).

- إنّ حسن الخلق من أنواع الجمال، فالجمال نوعان: فإمّا أن يكون جمالٌ حسيٌ أو معنويٌ، فالجمال الحسي: يتمثل بالشكل، والهيئة، والزينة، واللباس، أمّا الجمال المعنوي: فيتمثل بالنفس، والسلوك، والذكاء، والعلم، والأدب، ومن الجدير بالذّكر أنّ للإنسان عورتين، وهما: عورة الجسم، وعورة النفس، وستر الجسم يكون بالملابس، وستر النفس يكون بالأخلاق الحسنة، وبيّن الله -تعالى- أنّ الستر المعنوي، أهم من الستر المادي، حيث قال الله تعالى: (يا بَنِي آدَمَ قَد أَنزَلنا عَلَيكُم لِباسًا يُوارِي سَوآتِكُم وَريشًا وَلِباسُ التَّقوى ذلِكَ خَيرٌ ذلِكَ مِن آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُم يَذَّكَّرونَ).[٩]

- **من أخلاق الرسول امتثل النبي محمدٌ -صلّى الله عليه وسلّم- بالأخلاق الحسنة والكريمة، التي جعلت منه قدوةً للناس**، وفيما يأتي بيان بعضها:

- **الكرم** كان النبي -صلّى الله عليه وسلّم- كريماً، لم تشهد العرب مثل كرمه، ولم يكن قصده من ذلك الحصول على منصبٍ، أو جاهٍ، أو الابتعاد عن النقائص، وإنّما كانت الغاية من ذلك، نيل رضا الله تعالى، وحمايةً ورعايةً لرسالة الإسلام، فكان ينفق ما يحتاج إليه بشدةٍ، وكان النبي -صلّى الله عليه وسلّم- كثير الإنفاق في سبيل الله تعالى، ومما يذكر في كرم النبي -صلّى الله عليه وسلّم- من القصص، أنّه أتاه ذات مرةٍ سائلاً، فأعطاه الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- غنماً قُدّر بأنّه يسدّ ما بين الجبلين، فعاد الرجل إلى قومه، وحثّهم إلى الإسلام، بسبب فعل النبي صلّى الله عليه وسلّم، كما أنّ النبي -صلّى الله عليه وسلّم- في إحدى المرات، أُتي له بتسعين ألف درهمٍ، ففسّمها جميعها على السائلين، حتى فرغ منها.

- **الصبر** فقد صبر النبي صلّى الله عليه وسلّم، حيث إنّه ضرب أروع الأمثلة في الصبر على الأذى والشرّ، فقضى ثلاثاً وعشرين عاماً في مكة المكرمة، داعياً إلى توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له، إلّا أنّ الكفار واجهوا دعوته، وتصدّوا لها بالعديد من الأساليب، والطرق التي تمنع من انتشارها، إلّا أنّ ذلك لم يؤثر على النبي صلّى الله عليه وسلّم، إلّا زيادةً في صبره، مما انعكس إيجاباً على دعوة الإسلام، بدخول أعدادٍ كبيرةٍ من الكفار إلى الإسلام، حيث خاطبه الله -تعالى- فقال له: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ)

وكذلك فإنّ للأخلاق أهميّةً بالغةً، ولا تقتصر هذه الأهميّة والتأثير على الفرد وحده، بل تتعدّى هذه الأهميّة لتعمّ المجتمع كلّه؛ لذا يُقسّم الحديث عن أهميّة الأخلاق إلى قسمين، وبيان ذلك على النحو الآتي:

أولاً: أهميّة الأخلاق للفرد

إنّ للأخلاق أهميّة عظيمة للفرد، ويتجلّى ذلك في العديد من الأفعال والسلوكات، وبيان ذلك على النحو الآتي:

- الأخلاق تمنح الفرد إمكانيّة اختيار السلوك الصادر عنه، وتحديد شكله، ممّا يعني الإسهام في تشكيل شخصيّة الفرد، وتحديد أهدافه في الحياة. الأخلاق تمنح الفرد الشعور بالأمان؛ إذ بالأخلاق والتّحلّي بها يتمكّن الفرد من مواجهة ضعف نفسه، ومجابهة التّحديات والعقبات التي تواجهه في حياته.

- الأخلاق تساعد الفرد على ضبط شهواته وهواه ومطامع نفسه، حيث تكون تصرّفاته كلّها متّسقة على ضوء ما يتحلّى به من الأخلاق الحُسنة.

- الأخلاق تسمو بالإنسان فوق الماديّات المحسوسة، فيرتفع الإنسان بالأخلاق إلى درجاتٍ رفيعةٍ من الإنسانيّة.

- الأخلاق الحسنة تُكسِب الفرد جزاءً حسناً في الحياة الآخرة، ويتمثّل هذا الجزاء بالأجر الكريم، وبالثواب الحَسن من رضا الله تعالى، والقبول منه، والفوز بجنّته.

- أنها تهيء للأفراد اختيارات معينة عن طريق الأوامر والنواهي والإلزامات التكليفية، تحدد السلوك الصادر عنهم، وبمعنى آخر؛ تحدد أشكال السلوك، وبالتالي تلعب الدور الهام فى تشكيل الشخصية الفردية السعيدة فى الحياة الدنيا. وفى الحياة الآخرة عن طريق تحديد أهدافها فى إطار معياري صحيح.

- أنها تعطي الفرد إمكانية تحقيق ما هو مطلوب منه فى إطار الرسالة الإسلامية، وتمنحه القدرة على التكيف والتوافق الإيجابيين، وتحقيق الرضا عن النفس بإرضاء الله تعالى عن طريق التجاوب مع الجماعة في مبادئها وعقائدها وأخلاقها الصحيحة.

- أنها تحقق للفرد الإحساس بالأمان، إذ هو يستعين بها على مواجهة ضعفه وضعف نفسه، ومواجهة التحديات والعقبات التى تواجهه فى حياته.

٨ – أنها تعطي الفرد فرصة ودفعة نحو تحسين وعيه، ومعتقداته، وسلوكياته، لتتضح الرؤية أمامه، وبالتالى تساعده على فهم العالم حوله، وتوسع مدلولات الإطار الفكري لفهم حياته وعلاقاته.

٩ – أنها تعطي الفرد فرصة للتعبير عن الذات، مؤكدا ذاته فى إطار العبودية الصحيحة لله وعن فهم عميق لها ولإمكانياتها.

١٠ – أنها تعمل على إصلاح الفرد نفسيا، وتوجهه نحو الخير والإحسان الواجب وكافة مكارم الأخلاق التي تضمن حياة نظيفة فى الدنيا، وجزاء أوفى فى الآخرة.

١١ – أنها تعمل على ضبط الفرد لشهواته، ومطامعه، فلا تتغلب على فكره ووجدانه، لأنها تربط سلوكه وتصرفاته بمعايير وأحكام أهمها إرضاء الله سبحانه وتعالى، وبالتالي يتصرف فى ضوئها وعلى هديها.

١٢ – أنها تبعد الإنسان عن النقص البشري الذي يجعل الحياة جحيما لا يطاق، وذلك من جراء صفات من أبرزها الجبن والخوف، والاستهتار واللامبالاة إلى غير ذلك من صفات يجب أن يتجنبها الإنسان.

١٣ – تسمو بالإنسان وترفعه فوق الماديات المحسوسة حتى لا يرتبط بها ارتباطا كليا، فتغلب عليه حيوانيته، وإلى سماء الإنسانية الرفيعة بكل ما فيها من جمال وقيم ومبادىء سامية لا تتحقق إلا بالتمسك بالأخلاق الإسلامية ومنهج الإسلام فى الحياة.

إلا أنه يجب أن لا ندرك هذه الوظائف منفصلة بعضها عن بعض، بل هي متداخلة متكاملة بعضها مع بعض وبالتالي تحقق ذاتية الفرد، وتجعله يحس ويستشعر عظمة وقيمة حياته، إنها فى النهاية تحقيق لإنسانية الإنسان، ورضاه عن نفسه برضا الله تعالى عليه وتحقيق إرادته مع أوامره ونواهيه.

١٤ ، ١١ ، ١٩

ثانياً: أهميّة الأخلاق للمجتمع

إنّ تمسُّك المجتمعات والأُمم بالأخلاق الحَسنة والتزامها بها، يُعدّ سبباً في حفظ المجتمعات والأمم وبقائها، ودوام مجدِها وعزّتها، بينما يُعدّ انحلال الأخلاق سبباً في زوال المجتمعات، وانحلالها، وتلاشي أثرها، فقد تعرّضت عدّة أمم سابقة لسخط الله تعالى، وحلّ عليها عذابه؛ بسبب ما كانت عليه من سُوء الخلق، وشاهد ذلك في القرآن الكريم، قول الله -تعالى- في سورة الإسراء: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا *وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)،

فسُوء الأخلاق مؤذِنٌ بخراب المجتمع ودماره وانهيار كيانه، وقد عبّر الشّاعر أحمد شوقي عن هذا الأمر، حيث قال:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلاً

وفيما يأتي بيان لأهميّة الأخلاق، وفوائدها التي تعود على المجتمعات:

- الأخلاق تحفظ للمجتمع تماسكه واستقراره، بتحديدها للمُثُل العُليا، والمبادئ الأساسيّة التي يقوم عليها، ممّا يجعل الحياة الاجتماعيّة سليمةً ويُبقيها متواصلةً.

- الأخلاق تساعد المجتمع على مواجهة التغيّرات التي تحدث فيه؛ وذلك بتحديدها للاختيارات الصحيحة والسليمة التي تسهّل حياة عموم النّاس، وتحفظ كيان المجتمع في إطارٍ موحّدٍ ومحدّدٍ.

- الأخلاق تُسهم في ربط أجزاء المجتمع الثقافيّة بعضها ببعض؛ إذ تجعلها تبدو متناسقة ومتجانسة، كما تُعطي الأخلاق أيضاً النظام المجتمعيّ أساساً إيمانيّاً وعقليّاً.

- الأخلاق تقي المجتمعَ من الأنانيّة المُفرطة، وطيش الشّهوات، ونزوات الأهواء التي تضرّ بأفراده، وتُخلّ بنظامه.

- الأخلاق تزوّد المجتمع بصيغةٍ تُبيّن كيفيّة وطريقة التعامل مع العالم الطبيعيّ والبشريّ.

الأخلاق تزوّد المجتمع بالصّبغة الملائمة التي تربط بين نظمه الداخليّة المختلفة، منها: الاقتصاديّة، والسياسيّة، والإداريّة، ممّا يؤدي إلى إحاطته بسياجٍ واقٍ يقيه من التفكّك والانحلال، وما يترتّب عليهما من مخاطر وأضرار.

وتعد الأخلاق قاعدة أساسية لبناء المجتمعات، حيث تُبنى عليها جميع القوانين والأحكام، وهي الأساس الذي تقوم عليه مبادئ الشريعة الإسلامية، الأمر الذي يجعلها أساس صلاح المجتمع، والدرع الواقي من المسبّبات المؤدّية لانهياره، وتحويلها إلى مجتمعات تحكمها الشهوات أو الغرائز، وبالتالي سيادة قانون الغاب فيها. لذا فان تطبيق الاخلاق تطبيقا عملياً ينتج عنه ما يأتي:

- **تكوين الأفراد المثاليين**

تعتبر الأخلاق العنصر الأساسي في إنشاء أفرادٍ مثاليين، وأسر سليمة، ومجتمعاتٍ راقية، ودولٍ متقدّمةٍ، لذلك تلعب الأخلاق دوراً أساسياً في تهذيب المجتمعات، وإعدادها إعداداً فاضلاً، علماً

أنّ الأخلاق المثالية هي العاصمة للمجتمعات من الانهيار والانحلال، كما أنّها هي التي تصون المدنية والحضارات من الضياع، ممّا يجعلها المسبّب الأساسي لنهضة الأمم، وقوّتها.

- تنمية الشعور الجماعي

تلعب الأخلاق دوراً أساسياً في تنمية الشعور الجماعي بالآخرين، وفي تنظيم العلاقات بين الأفراد، الأمر الذي يقوّي أواصر المجتمع، ويزيد من ألفته، ومن تعاونه، وتماسكه، وبالتالي قوّته.

- تنمية الإرادة

تلعب الأخلاق دوراً في تنمية الإرادة، ووضع حدود للشهوات، الأمر الذي يدفع الأشخاص لإشباعها بالطرق الصحيحة والشرعية، وبالتالي كبح جماح النزوات.

- إنشاء وحدة قيمية للأفراد

تعتبر الأخلاق الدستور المثالي الذي يتم تقييم الأفعال والتصرفات بناءً عليه، علماً أنّ كل ما يتفق مع التصرفات هو حسن ومحترم وخيّر، وكل ما يخالفها فهو شر ومحتقر وسيئ، الأمر الذي يوحّد هذه القيم لدى أفراد المجتمع.

علاقة الأخلاق بالتربية :

أولى الإسلام متمثلا بمصدرية القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة عناية فائقة وكبيرة بالأخلاق؛ فالأخلاق من أسس الإسلام، ذلك أنها متصلة بعمل المسلم ونشاطاته، وبكل ما يتعلق بعلاقته بربه، ومع نفسه، ومع غيره، وبكل ما يحيط به حتى مع الحيوانات والجمادات . والأخلاق الحسنة صفة سيّد المرسلين، وأفضل أعمال الصّدّيقين، وهو على التّحقيق شطر الدّين، وثمرة مجاهدة المتّقين، ورياضة المتعبّدين.

و"الدين كلُّه خُلُق، فمن زادَ عليك في الخُلق زاد عليك في الدين" كما عند ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين .فالأخلاق مصدرها الدين الذي يبث الطاقة الروحية، وتدخل الأخلاق في كافة أمور الدين من كونها امتثالا لأمر الله {خذ العفو} (الأعراف: ٩٩)، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم: (وخالِقِ النَّاسَ بخُلقٍ حَسنٍ) (رواه الترمذي ٣٥٥/٤). وهي مراد الله سبحانه من الإنسان المسلم بأن يكون ذا خلق كامل زكي النفس، قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}(الشمس: ٩). والأخلاق مثمرة في الدعوة إلى الله عز وجل؛ فكثير ممن أسلموا دخلوا بدين الله لتأثرهم بأخلاق المسلمين .

والسلوكيات الأخلاقية وآدابها هي التي تميز سلوك الإنسان عن سلوك البهائم، سواء في تحقيق حاجاته الطبيعية أم في علاقاته مع غيره من الكائنات الأخرى. ولهذا فالآداب الأخلاقية زينة الإنسان وحليته الجميلة، وبقدر ما يتحلى بها الإنسان يضفي على نفسه جمالا وبهاء، وقيمة إنسانية .والأخلاق تكون إما جبلة جبل الله عليها الإنسان كقوله صلى الله عليه وسلم لزارع بن عامر بن عبدالقيس رضي الله عنه (بَلِ اللهُ جبلكَ عليهما..) (رواه أبو داود ٣٥٧/٤)، وإما أن تكتسب كما يقره العلماء وعلماء التربية ومنهم الإمام الغزالي رحمه الله بقوله في الإحياء: "قد عرفت بهذا قطعًا أنّ هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرّياضة وهي تكلّف الأفعال الصّادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً انتهاء وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح أعني النفس والبدن"، مستندين بذلك على قوله عليه السلام: (وإنما الحِلمُ بالتَّحلُّمِ) (صحيح الجامع: ٢٣٢٨). ولو كانت الأخلاق لا تقبل التّغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتّأديبات، وكيف ينكر هذا في حقّ الآدميّ وتغيير خلق البهيمة ممكنٌ؛ إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل...وغير ذلك.

وإذا أهملت الطباع ولم ترض بالتأديب والتقويم نشأ كل إنسان على رسوم طباعه، وبقي عمره كله على الحال التي كان عليها في الطفولية، وتبع ما وافقه في الطبع؛ أما الغضب وأما اللذة وأما الزعارة وأما الشره وأما غير ذلك من الطباع المذمومة .

والتربية الأخلاقية من أشرف العلوم وأرفعها وهي تاج العلوم وإكليلها، وبها تنهض المجتمعات وتُبنى وتبقى، كون الأخلاق معيار المجتمعات وتقدمها وتماسكها وحفاظها على هويتها وكيانها. ونلمس ذلك جليا في التحول الذي أجراه الإسلام حين حول العرب المتناحرين إلى أخوة متحابين؛ تسود بينهم الألفة والمودة من خلال تربية القرآن بآياته، وتربية الحبيب صلى الله عليه وسلم بأفعاله وأقواله.

ومن ذلك النظر في كتاب الله وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم بالنصوص الدالة على مدح ذلك الخلق العظيم الذي يريد أن يتخلق به، وعقوبة سوء الأخلاق. وهذا جميعه يحصل من خلال العملية التربوية .وفي التربية الأخلاقية لا بد من التعاون والتكافل بين المؤسسات التربوية كالأسرة والمدرسة، فإنه من الصعب أن يقوم فردٌ واحد بتربية أبنائه مثلاً دون تعاون مَنْ معه ومَنْ حوله على هذه المهمة، ويجب أن يكون تصور الأخلاق من خلال تصوّر الخير والشر على رأي واحدٍ وموقف واحدٍ من المؤسسات التربوية، ومتى ما كانت على رأيين وموقفين في هذا فستسقط البوصلة، وسيتشتت الأمر، ويضيع المتربي .

والتربية التي لا تبنى على أخلاق وقيم واضحة محددة؛ ستزيغ عن الدرب، وتفقد الهدف، ولن تؤتي ثمارها، إذ سوف يغيب العدل والإنصاف والصدق... وغير ذلك، وتحل مكانها القيم الهادمة؛ التي تنخر في النظام التربوي التعليمي. وهذا ما يميز التربية الإسلامية التي تضع الأخلاق وتزنها وتأطرها بميزان الشرع، فلا يحصل تناقض وتضاد أو تبديل وتحويل .و بداية التغيير إنما هي من النفس{إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}(الرعد: ١١)، من خلال القناعة التي يتحصل عليها من التربية وطرائقها، ومعلومٌ أنّ مَن استُهدِف بالتربية، ولكنه لم يقتنع بها، ولم يرض بها، فلن تنفعه هذه التربية.

علاقة الأخلاق بالدين :

هل يمكن ان يقال أن هناك علاقة أو اتصال حتمي بين الدين والأخلاق، حيث لا يمكن فصل القيم الأخلاقية عن مبادئ العقيدة الدينية وتعاليمها ، وبحيث لا بد من تلازمهما ؛ لأنهما صنوان يصدران عن أصل واحد وهو الوحي الإلهي ؟ أم أن المعايير الأخلاقية يمكن أن تنفصل أحياناً عن التعاليم الدينية ، لتتخذ مفاهيم أخرى تنبع من الأعراف الاجتماعية أو المصالح المادية ؟

١- مكانة الأخلاق في الدين الإسلامي

إن المكانة التي أفردها الإسلام لمفهوم مكارم الأخلاق لا يدانيها مكانة أخرى، فالأخلاق هي المعيار الأساسي للتفاضل بين الناس , وقول النبي صلى الله عليه وسلم" إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "يدل على أن الغاية من رسالة الإسلام هو تعليم الناس كيف يمارسون مكارم الأخلاق في حياتهم اليومية وسائر أنشطتهم الفردية والاجتماعية , فلا غرو أن يكون الأنبياء والمرسلون هم خير الناس أخلا قاً ا وأحسنهم أدباً في التعامل مع الآخرين , إذ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أدبني ربي فأحسن تأدبي ، ثم أمرني بمكارم الأخلاق فقال :خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) .

ومما ورد في القرآن الكريم من الثناء على رسول الله صلى الله عليه وسلم قول الحق تعالى : : {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ٢٣ } وأورد الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية حديثاً ا رواه مسلم في صحيحه عن سعيد بن هشام أنه

سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت :ألست تقرأ القرآن؟ قال : بلى .قالت : فإن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن.

وقال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية :المعنى أنك يا محمد لعلى دين عظيم وهو الإسلام؛ وكذلك قال جمهور من المفسرين .وورد في تفسير الإمام النسفي لقول السيد عائشة رضي الله عنها" : كان خلقه القرآن "أي ما فيه من مكارم الأخلاق .

ونلاحظ أن مكارم الأخلاق في القرآن الكريم تدور حول الأوامر والنواهي ، أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .حتى أن العبادات الإسلامية في دلالاتها الجوهرية إنما هي تكريس للقيم الخلقية العملية، فإن أداء فرائض الصلاة والصوم والزكاة والحج لا تكون مقبولة عند الله ما لم تؤد إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والى التحلي بمكارم الأخلاق .

قال تعالى : { كُنتُمْ خَيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ} أي أن أفضلية الأمة الإسلامية وخيريّتها يتجلى في مدى التزامها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمعروف هو كل ما تعارف الناس في مجتمع ما على نفعه وفائدته فالتزموا به وجعلوه قبلة أعمالهم ، وأما المنكر فهو ما أجمع الناس على إنكاره باعتباره نقيضاً للعرف الذي توافقوا عليه .

وهذا يقودنا إلى العلاقة بين أخلاق الدين وأخلاق العرف .فهل هناك صلة بين الأخلاق القائمة على الدين والأخلاق القائمة على العرف ؟ هل هما شيءٌ واحد ، أم يمكن أن ينفصلا ؟ لقد أمر الإسلام باحترام العرف ؛ لأن مفهوم العرف يشمل كل ما يخالف المنكر ويناقضه ، فهو العرف المنسجم مع مبادئ الإسلام وتعاليمه .

قال الحق سبحانه :{ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجاهلين } ولذلك فقد أبقى الإسلام على الفضائل التي كانت من العرف الجاهلي مثل الشجاعة ، والكرم ، واغاثة الملهوف ، ونصرة الضعيف، وإكرام الضيف ، وحفظ الأمانة، والوفاء بالعهد؛ ولكن الإسلام، من جهة أخرى، رفض أعرافاً وعادات جاهلية تناقض مبادئ الإسلام وتعاليمه مثل : العصبية القبلية، والأخذ بالثأر، وشرب الخمر ، ووأد البنات، وانتهاك حقوق النساء، وأكل الميتة، واغتصاب الإرث بالقوة ، وسواها من الأخلاق الجاهلية . وما يقال في الإسلام لجهة علاقته بالعرف، ينطبق على سائر الديانات السماوية، كاليهودية والمسيحية، لقد كانت الرسالات السماوية تراعي الأعراف السائد في المجتمعات البشرية شرط ألا تخالف هذه الأعراف تعاليم الدين, وبهذا المعنى تصبح الأعراف والأخلاق وتعاليم الدين ذات مفاهيم متقاربة إلى حد التطابق أحياناً .

يتبين لنا من دراسة القواعد السلوكية لدى بعض المجتمعات البشرية ، أن المفاهيم الأخلاقية يمكن أن تنأى عن الدين أو تخالف تعاليمه في بعض الأحوال عندما يطغى العرف الاجتماع المنحرف على التعاليم الدينية ، أو عندما تخضع القواعد السلوكية لنوازع النفع المادي وشهوات الانفس الأمارة بالسوء , وكمثال على ذلك أخلاق الربا التي تنخر المجتمعات البشرية وتستنزف الأفراد والجماعات ، حيث تشتمل على أنواع كثيرة لا تحصى من المعاملات والنشاطات الاقتصادية المتفرعة عن تطبيق الربا، حتى أصبح مفهوم الربا خلقاً يومياً يتبعه الناس في معاملاتهم وسلوكهم سواء عن وعي أو جهل بما يفعلون ففي هذه المعاملات تخضع العلاقات بين الناس لأخلاق الربا طمعاً في النفع المادي ، ورغبة في الربح المالي السريع على حساب الآخرين , وقد شدة الإسلام في تحريم الربا، قال الحق تعالى{ : الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يقُومُ الَّذِي يتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَن قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ

وَحَرَّمَ الرِّبَا }وعن ابن مسعود قال : (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه) ومن المشاهدات التي يظهر طغيان العرف على تعاليم الدين ، ما نراه في بعض المجتمعات الإسلامية لجهة التغالي في المهور، مع أن السنة النبوية تدعو إلى تيسير مهر المرأة ، عن رسول الله صلى

الله عليه وسلم" : أن أعظم النساء بركة أيسرهن صدا قاً " وقوله" من يُمن المرأة تسهيل أمرها وقلة صداقها" .

وكذلك يطغى العرف في بعض البلدان العربية على الحكم الديني في ما يعرف ب" جرائم الشرف "حيث تتساهل المحاكم في الحكم على القاتل وتمنحه الأسباب التخفيفية خلا فاً لأحكام الحدوة الإسلامية في مثل هذه الجرائم .

وقد نجد أعرافاً وعادات وتقاليد متبعة في بعض البلدان الإسلامية ما أنزل الله هذا من سلطان، ومنها على سبيل المثال، الزواج العرفي، واللجوء إلى السحر والعرافين لقضاء الحوائج ومعرفة المستقبل، وتصديق المنجمين في الرجم بالغيب ...إلخ , وأمام هذه الحالات التي تشهد إنقطاع العلاقة بين الدين والأخلاق هناك من المفكرين

المحدثين من ينفي وجود أية صلة بينهما .ويرى هؤلاء أنه" ليس ضرورياً أن نعتقد وجود أفكار ميتافيزيقية لها صلة بما هو أخلاق ، بل إنه من الممكن إيجاد أخلاق بدون الاستناد على أي مبدأ ديني، ومن هؤلاء المفكرين أوغست كونت "الذي نادى بضرورة الفصل بين" الأخلاق والدين "ولكنه يرى أن ثمة علاقة بين الأخلاق والعرف ويستنتج من ذلك أن العرف أيضاً لا علاقة له بالدين .

وعلى أي حال فإن علاقة الأخلاق بالدين أمر ثابت، وما دعوة هؤلاء إلى فصل الأخلاق عن الدين سوى اعتراف ضمني بوجود مثل هذه العلاقة .

علاقة الأخلاق بالنفس وقواها :

إنّ المحور الأساس لصفات الإنسان النفسية يكمن في قوى أربع تعود إليها جميع الملكات والتوجّهات النفسيّة، وهذه القوى الأربع هي:

١- القوّة العقليّة: هذه القوّة من شأنها أن تُدرك الحسن من القبيح وتميّز الخير من الشر، ثمّ تأمر بفعل الحسن منها وترك القبيح.

٢- القوّة الغضبيّة: وهي التي يدفع بها الإنسان الشرور والمخاطر والأذى عن نفسه، وبأيّ صورة مشروعة أو غير مشروعة؛ لأنّ هذه القوّة نفسَها لا تميّز بين الحسن والقبيح.

٣- القوّة الشهويّة: وهي القوّة التي يطلب بها الإنسان المنفعة لنفسه، من قبيل المأكل والمشرب والشهوة، من دون أن تلاحظ هذه القوّة فيما تطلبه الحلال من الحرام أم الطاهر من النجس أو الحسن من القبيح؛ لأنّ ذلك ليس من شأنها، بل كلّ ما تراه هو الرغبة الجامحة لهذه الأمور.

٤- القوّة الوهميّة: ووظيفة هذه القوّة أن تتابع التفاصيل الصغيرة من الأمور لتحلّلها وتستخرج منها الحيل لكي تتوصّل بها إلى تحقيق رغبات القوى الثلاث المتقدّمة، وعلى هذا فلو سُخّرت في خدمة القوّة العقليّة لبرع الإنسان في مجالات العلوم والاختراعات المفيدة، ولو سخّرها في خدمة القوّة البهيميّة لبرع في نصف المكائد لتلبية شهواته، ولو سخّرها في خدمة القوّة الغضبيّة، لبرع في العدوان والطمع والجشع.

وبناء على هذا التفصيل فإنّ النفس إذا تبعت القوّة الشهويّة سُمّيت نفساً "بهيميّة" لأنّ البهيمة لا يهمّها سوى علفها وملذّاتها، وإذا تبعت القوّة الغضبيّة سمّيت "سبعيّة" لأنّ فيها طبع السباع الضارية، وإذا تبعت القوّة العقليّة سمّيت "ملكيّة إلهيّة".

التوازن في قوى النفس:

إنّ قوى النفس التي سبق الحديث عنها لها حدان مترامیان؛ الأوّل حدّ الإفراط والثاني حدّ التفريط. ولابدّ لسالك درب الأخلاق من أن يلتزم الوسط والاعتدال في القوّة الشهويّة بأن يكون الإنسان عفيفاً عقلاً وشرعاً، لا حدّ الإفراط بأن تكون الشهوة شديدة لا ترى أمامها رادعاً في الوصول إلى مآربها، ولا حدّ التفريط في خمودها بحيث تبطل الفائدة منها، فإنّ فائدة شهوة البطن أن يقيم بها الإنسان أوَده ويستمرّ في الحياة، والشهوة الجنسيّة لبقاء النسل، فلو كانتا خامدتين

لما عُمِّر العالم وانتفت مظاهر الحياة فيه، ولو كانتا متفجّرتين كبركان يجتاح أمامه كلّ ما يمرّ به لذابت الأرض بجرائم أهلها وفسادهم.

وحدّ الاعتدال في الغضبيّة أن يكون المرء شجاعاً لا يخاف، وحدّ الإفراط في التهوّر والإقدام على المكاره بدون دراسة ونظر، وحدّ التفريط في الجبن والاستسلام والخنوع.

ومن هنا فعلى الإنسان السالك إلى الله تعالى بتهذيب نفسه أو لا يدع أيّاً من قواه يميل به عن الحادّة الوسط إلى حدّي الإفراط والتفريط: لأنّ كلّاً من هذه القوى تسعى لتحقيق رغباتها بغضّ النظر عن مصالح الأخرى، ومن هنا كانت النفس الإنسانية ساحةً لأكبر المعارك، وأكبرُ الجهاد أن يجاهد الإنسان هذه القوى التي تتصارع يميناً وشمالاً لتخرج من حد الوسطيّة والفضيلة، إلى الانحراف والرذيلة، ولذلك ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال لقوم رجعوا من ساحة المعركة: (مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر، وبقي عليهم الجهاد الأكبر)

نخلص إلى إنّ النفس إذا تبعت القوّة الشهويّة سمّيت نفساً" بهيميّة", لأنّ البهيمة لا يهمّها سوى علفها وملذّاتها، وإذا تبعت القوّة الغضبيّة سمّيت" سبعيّة "لأنّ فيها طبع السباع الضارية، وإذا تبعت القوّة العقليّة سمّيت" ملكيّة إلهيّة."

– إنّ قوى النفس الّتي سبق الحديث عنها لها حدّان مترامیان الأوّل حدّ الإفراط والثاني حدّ التفريط، ولا بدّ لسالك درب الأخلاق وتهذيب النفس من أن يسلك بين هذين الحدّين، أي في الوسط، ولأنّ كلّاً من هذه القوى تسعى لتحقيق رغباتها بغضّ النظر عن مصالح الأخرى كانت النفس الإنسانيّة ساحة لأكبر المعارك، وكان الجهاد فيها هو الجهاد الأكبر.

قابلية الأخلاق للتغير

أولاً : نظرية ثبات الأخلاق :

الإسلام يقرِّر ثباتَ الخلُق، ويُوجبه، ويُنشئ النفسَ عليه، ويجعله في حِياطة المجتمع وحراسته؛ لأنَّ هنالك حدودًا في الإنسانية تتميز بحدود في الحياة، ولابد من الضبط في هذه وهذه، حتى لا يكونَ وضْعٌ إلا وراءَه تقدير، ولا تقديرٌ إلا معه حكمة، ولا حكمةٌ إلا فيها مصلحة، وحتى لا تعلوَ الحياةُ ولا تنزلَ إلا بمثل ما ترى من كفَّتيْ ميزان شدَّتا في علاقة تجمعهما وتحرِّكهما معًا؛ فهي بذاتها هي التي تنزلُ بالمنازل لتدلَّ عليه، وتَشِيل بالعالي لتبين عنه؛ فالإسلامُ من المدنية هو مدنية هذه المدنية.

إنَّها لن تتغيَّر مادةُ العظمِ واللحمِ والدمِ في الإنسان، فهي ثابتةٌ مقدَّرةٌ عليه، ولن تتبدَّل السُّننُ الإلهيةُ التي تُوجدها وتُفنيها؛ فهي مُصرِّفة لها قاضيةٌ عليها، وبين عمل هذه المادة وعملِ قانونِها فيها تكونُ أسرارُ التكوين، وفي هذه الأسرارِ تجد تاريخَ الإنسانية كلَّه سابحًا في الدَّم.

هي الغرائز تعمل في الإنسانية عملَها الإلهي، وهي محدَّدةٌ محكمة على ما يكونُ من تعاديها واختلافِ بينها، وكأنها خُلقتْ بمجموعها لمجموعها، ومن ثَمَّ يكون الخُلق الصحيح في معناه قانونًا إلهيًّا على قوَّةٍ كقوَّةِ الكونِ وضبطٍ كضبطه.

وبهذه القوة وهذا الضبط يستطيع الخلُق أن يحوِّل المادة التي تعارضه إذا هو اشتدَّ وصلُب، ولكنَّه يتحوَّلُ معها إذا هو لانَ أو ضعُفَ، فهو قدَرٌ إلا أنه في طاعتك؛ إذ هو قوَّةُ الفَصْل بين إنسانيَّتِك وحيوانيتك، كما أنَّه قوَّةُ المزج بينهما، كما أنه قوة التعديل فيهما، وقد سُوِّغَ القُدرةَ على هذه الأحوالِ جميعًا، ولولا أنَّه بهذه المثابة لعاشَ الإنسانُ طولَ التاريخ قبل التاريخ؛ إذ لن يكونَ له حينئذ كونٌ تؤرَّخُ فضائلُه، أو رذائلُه بمدح أو ذمٍّ.

فلا عبرة بمظهر الحياة في الفرد؛ إذ الفردُ مقيَّدٌ في ذاتِ نفسه بمجموع هو للمجموع، وليس له وحده؛ فإنَّك ترى الغرائزَ دائبةً في إيجاد هذا الفرد لنوعه بسُنَنٍ من أعمالها، ودائبةً كذلك في إهلاكه في النوع نفسه بسننٍ أخرى، فليس قانونُ الفرد إلا أمرًا عارضًا كما ترى، وبهذا يمكن أن يتحولَ الفردُ على أسباب مختلفة، ثم تبقى الأخلاقُ التي بينه وبين المجموع ثابتةً على صورتها.

فالأخلاق على أنها في الأفراد هي في حقيقتها حكمُ المجتمع على أفراده، فقِوامها بالاعتبار الاجتماعي لا غير.

وحينَ يقعُ الفسادُ في المُجْمَع عليه من آداب الناس، ويلْتوي ما كان مستقيمًا، وتشْتَبِه العاليةُ والسافلةُ، وتُطَّرحُ المبالاةُ بالضمير الاجتماعي، ويقومُ وزن الحكم في اجتماعهم على القبيح والمنكر، وتجري العبرة فيما يعتبرونه، بالرذائل والمحرمات، ولا يُعجبُ الناسَ إلا ما يُفسدهم، ويقع ذلك منهم بموقع القانون، ويَحِلُّ في محل العادة– فهناك لا مِساكَ للخُلُق السليم على الفرد، ولابد من تحوُّل الفرد في حقيقته؛ إذ كان لا يجيء أبدًا إلا مُتصدِّعًا في كل مظاهره الاجتماعية، فأينما وقع من أعمال الناس جاء مكسورًا أو مثلومًا، وكأنه منتقلٌ من عالم إلى عالم ثانٍ بغير نواميس الأول.

وما شذَّ من هذه القاعدة إلا الأنبياءُ، وأفرادٌ من الحكماء، فأما أولئك فهم قوةُ التحويل في تاريخ الإنسانية، لا يُبعثُ أحدهم إلا ليهيجَ به الهيْجُ في التاريخ، ويتطرَّقُ به الناس إلى سُبُل جديدة كأنما تطردهم إليها العواصفُ والزلازلُ والبراكينُ، لا شريعتُه ومبادئُه وآدابُه...

الأخلاقُ في رأيي هي الطريقةُ لتنظيم الشخصية الفردةِ على مقتضى الواجبات العامة، فالإصلاح فيها إنما يكونُ من عمل هذه الواجبات، أي من ناحية المجتمع والقائمين على حكمه، وعندي أن للشعبِ ظاهرًا وباطنًا، فباطنُه هو الدينُ الذي يحكم الفرد، وظاهره هو القانون الذي يحكمُ الجميع، ولن يصلُحَ للباطن المتصل بالغيب إلا ذلك الحكمُ الدينيُّ المتصلُ بالغيب مثلَه.

ومن هنا تتبيَّن مواضعُ الاختلال في المدنية الأوربية الجديدة، فهي في ظاهر الشعب دون باطنه، والفرد فاسدٌ بها في ذاتِ نفسه إذا هو تحلَّل من الدين، ولكنَّه مع ذلك يبدو صالحًا منتظمًا في ظاهره الاجتماعي بالقوانين وبالآداب العامة التي تفرضها القوانين، فلا يبرحُ هازئًا من الأخلاق ساخرًا بها؛ لأنها غير ثابتة فيه، ثم لا تكون عنده أخلاقًا يعتدُّ بها إلا إذا درَّتْ بها منافعه، وإلا فهي ضارَّة إذا كانت منها مضرَّة، وهي مؤلمة إذا حالت دون اللذات، ولا ينفكُّ هذا الفرد يتحوَّل؛ لأنَّه مطلقٌ في باطنه غيرُ مقيد إلا بأهوائه ونزعاته، وكلمتا الفضيلة والرذيلة معدومتان في لغة الأهواء والنزعات؛ إذ الغايةُ المتاعُ واللذةُ والنجاحُ، وليكن السبب ما هو كائن.

وبهذا فلن تقومَ القوانين في أوربا إذا فَنِيَ المؤمنون بالأديان فيها أو كاثرهم الملحدون، وهم اليومَ يُبصرون بأعينهم ما فعلت عقليةُ الحرب العظمى في طوائفَ منهم قد خَرِبتْ أنفسهم من إيمانهم؛ فتحولوا ذلك التحول الذي أومأنا إليه، فإذا أعصابهم بعد الحرب ما تزال محاربةً مقاتِلة ترمي في كلِّ شيء بروح الدم والأشلاء والقبور والتَّعفن والبِلى، وانتهت الحربُ بين أمم وأمم، ولكنها بدأت بين أخلاق وأخلاق.

وقديمًا حارب المسلمون، وفتحوا العالم، ودوَّخوا الأمم، فأثبتوا في كلِّ أرضٍ هديَ دينهم، وقوةَ أخلاقهم الثابتة، وكان من وراء أنفسهم في الحرب ما هو من ورائها في السِّلْم، وذلك بثبات باطنهم الذي لا يتحوَّل، ولا تستخفُّه الحياةُ بِزَرْقِها، ولا تتسَفَّهه المدنيَّات؛ فتحمله على الطيش.

ولو كانوا هم أهلَ هذه الحرب الأخيرة بكلِّ ما قذفت به الدنيا، لبقيتْ لهم العقلية المؤمنة القوية؛ لأنَّ كلَّ مسلم فإنما هو وعقليته في سلطان باطنه الثابت القارِّ على حدودٍ بيِّنةٍ محصَّلةٍ مقسومةٍ، تحوطها وتُمسكها أعمال الإيمان التي أحكمها الإسلامُ أشدَّ إحكام بفرضها على النفوس منوَّعةً مكرَّرة: كالصلاة والصوم والزكاة؛ ليمنعَ بها تغيرًا ويُحدِثَ بها تغيرًا آخر، ويجعلَها كالحارسة للإرادة ما تزال تمر بها، وتتعهدها بين الساعة والساعة.

إنما الظاهر والباطنُ كالموج والساحل، فإذا جُنَّ الموج فلن يضيره ما بقي الساحلُ ركينًا هادئًا مشدودًا بأعضاده في طبقات الأرض، أما إذا ماجَ الساحل فذلك أسلوب آخر غير أسلوب البحار والأعاصير، ولا جرمَ ألا يكون إلا خسْفًا بالأرض والماء وما يتصل بهما.

في الكون أصل لا يتغيَّر ولا يتبدَّل، هو قانون ضبط القوة، وتصريفها، وتوجيهها على مقتضى الحكمة، ويقابله في الإنسان قانونٌ مثلُه لابد منه لضبط معاني الإنسان، وتصريفها، وتوجيهها على مقتضى الكمال، وكلُّ فروض الدين الإسلاميّ وواجباته وآدابه، إنْ هي إلا حركة هذا القانون في عمله، فما تلك إلا طرقٌ ثابتةٌ لخَلْق الحسِّ الأدبي، وتثبيته بالتكرار، وإدخاله في ناموسٍ طبيعي بإجرائه في الأنفس مجرى العادة، وجعله بكلِّ ذلك قوةً في باطنها، فتسمَّى الواجباتُ والآدابُ فروضًا دينية، وما هي في الواقع إلا عناصرُ تكوين النفس العالية، وتكون أوامرَ وهي حقائق.

ومن ذلك أُرانا- نحن الشرقيين- نمتاز على الأوربيين بأننا أقربُ منهم إلى قوانين الكون، ففي أنفسنا ضوابط قويةٌ متينة إذا نحن أقررنا مدنيَّتهم فيها- وهي بطبيعتها لا تقبل إلا محاسن هذه المدنية- سبقناهم وتركنا غبارَ أقدامنا في وجوههم، وكنَّا الطبقةَ المصفَّاة التي ينشُدُونها في إنسانيتهم الراهنة ولا يجدونها، ونمتاز عنهم من جهة أخرى بأننا لم نُنشئ هذه المدنية، ولم تنشئنا، فليس حقًّا علينا أن نأخذ سيئاتها في حسناتها، وحماقتها في حكمتها، وتزويرَها في حقيقتها، وأن نُسيغَ منها الحلوةَ والمرَّة، والناضجةَ والفجَّة، وإنما نحن نحصلها، ونقتبسها، ونرتجعُ منها الرَّجعة الحسنة؛ فلا نأخذ إلا الشيء الصالحَ مكان الشيء قد كان دونه عندنا، وندعُ ما سوى ذلك، ثم لا نأخذ ولا ندَعُ إلا على الأصول الضابطةِ المحكمة في أديانا وآدابنا، ولسنا مثلهم متصلين من حاضر مدنيتهم بمثل ماضيهم.

بيدَ أنَّ العجبَ الذي ما يفرغُ عجبي منه أنَّ الموسومين منَّا بالتجديد لا يحاولون أولَ وهلةٍ وآخرها إلا هدمَ تلك الضوابط التي هي كلُّ ما نمتاز به، والتي هي كذلك كلُّ ما تحتاج إليه أُوربا؛ لضبط مدنيتها، ويسمُّون ذلك تجديدًا، ولَهُوَ بأن يسمى حماقةً وجهلًا أولى وأحقُّ.

أقول ولا أبالي: إننا ابتلينا في نهضتنا هذه بقوم من المترجمين قد احترفوا النقلَ من لغاتِ أوربا، ولا عقلَ إلا عقلُ ما ينقلونه، فصَنَعتُهم الترجمةُ من حيثُ يدرون أو لا يدرون صنعةَ تقليدٍ محْضٍ ومُتابعةٍ مُستعبَدة، وأصبح عقلهم- بحكم العادة والطبيعة- إذا فكَّر انجذب إلى ذلك الأصل لا يخرج عليه، ولا يتحوَّل عنه، وإذا صحَّ أنَّ أعمالَنا هي التي تعملُنا- كما يقول بعض الحكماء- فهم بذلك خطرٌ أيُّ خطر على الشعب وقوميَّته وذاتيته وخصائصه، ويُوشكُ إذا هو أطاعهم إلى كلِّ ما يدعون إليه أن... أن يترجموه إلى شعبٍ آخر...

إنَّ أوربا ومدنيتها لا تساوي عندنا شيئًا إلا بمقدار ما تُحقِّق فينا من اتساع الذاتية بعلومها وفنونها؛ فإنما الذاتيةُ وحدَها هي أساسُ قُوَّتنا في النزاع العالمي بكلِّ مظاهره أيَّما كان، ولها وحدَها، وباعتبارٍ منها دون سواها، نأخذ ما نأخذه من مدنية أُوربا، ونُهمل ما نُهمل، ولا يجوز أن نتركَ التثبتَ في هذا، ولا أن نتسامحَ في دقةِ المحاسبةِ عليه.

فالمحافظة على الضوابط الإنسانية القوية التي هي مظاهر الأديان فينا، ثم إدخالُ الواجبات الاجتماعية الحديثة في هذه الضوابط لربطها بالعصر وحضارته، ثم تنسيق مظهر الأُمَّة على مقتضى هذه الواجبات والضوابط، ثم العمل على اتحاد المشاعر، وتمازُجها؛ لتقويم هذا المظهر الشعبيِّ في جملته بتقويم أجزائه- هذه هي الأركان الأربعةُ التي لا يقوم على غيرها بناءُ الشرق.

والإلحادُ، والنزعاتُ السافلة، وتخانيثُ المدنية الأوربية التي لا عملَ لها إلا أن تُظهِرَ الخطرَ في أجمل أشكاله، ثم الجهل بعلوم القوَّة الحديثة، وبأصول التدبير وحياطة الاجتماع وما جرى هذا المجرى، ثم التدليسُ على الأُمَّة بآراء المقلِّدين والزائفين والمستعمرين لمحْقِ الأخلاق الشعبية القوية وما اتصل بذلك، ثم التخاذلُ والشقاقُ، وتدابُرُ الطوائف، وما كان بسبيلها- تلك هي المعاولُ الأربعةُ التي لا يهدمُ غيرُها بناءَ الشرق.

ثانياً : نظرية امكانية تغيير الأخلاق :

التغيير سنة كونية جارية .. فيها آيات وعبر .. لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً، والله يغير في ملكه ما شاء متى شاء: ليلاً ونهاراً .. وصيفاً وشتاءً .. وحراً وبرداً .. وصحة ومرضاً .. وراحةً وتعباً .. وحركةً وسكوناً .. وأمناً وخوفاً. {يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤)} [النور: ٤٤].

وقد حمل الله الإنسان أمانة تغيير أخلاقه من بين سائر المخلوقات، ومكنه من اختيار ما يريد من إيمان وكفر، وعدل وظلم، وحق وباطل: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩)} [الكهف: ٢٩].

والإنسان يتأثر بالبيئة التي يعيش فيها، ويكتسب أخلاقه من خلالها، فإن كانت طيبة تذكر بالله واليوم الآخر طابت أخلاقه وأعماله، وإن كانت سيئة فيها الفواحش والفجور والشهوات ساءت أخلاقه، وفسدت أعماله.

ولذلك أمرنا الله عزَّ وجلَّ بلزوم البيئة الصالحة كما قال سبحانه: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)} [التوبة: ١١٩].

وحذرنا من البيئة الفاسدة كما قال سبحانه: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨)} [الأنعام: ٦٨].

وأصعب ما على الطبيعة الإنسانية تغيير الأخلاق التي طبعت النفوس عليها، فهي كالنهر المنحدر الذي إن ترك أغرق الأرض والعمران، فسكره وحبسه لا يجدي؛ لأنه سيمتلئ فيكون إفساده وتخريبه أعظم. وقطعه من أصل الينبوع متعذر؛ لأنه كلما سدّ من موضع نبع من موضع آخر فلم يزل خطره. لكن الأجدى والأنفع صرفه عن مجراه المنتهي إلى العمران إلى موضع ينتفعون بوصوله إليه، ولا يتضررون به، فصرفه إلى أرض قابلة للنبات وسقيها به أجدى وأنفع وأسلم.

إذا تبين هذا فالله العليم الحكيم اقتضت حكمته أن ركب الإنسان والحيوان على طبيعة محمولة على قوتين: قوة غضبية .. وقوة شهوانية.

وهاتان القوتان هما الحاملتان لأخلاق النفس وصفاتها، وهما مركوزتان في جبلة كل حيوان برحمة العزيز العليم.

فبقوة الشهوة يجذب الإنسان المنافع إلى نفسه، وبقوة الغضب يدفع المضار عن نفسه. فإذا استعمل الإنسان الشهوة في طلب ما يحتاج تولد منها الحرص، وإذا استعمل الغضب في دفع المضرة عن نفسه تولد منه القوة والغيرة.

فإذا عجز عن ذلك الضار أورثه قوة الحقد، وإن عجز عن وصول ما يحتاج إليه ورأى غيره مستبداً به أورثه الحسد.

فإن ظفر بما يحب ويحتاج أورثته شدة شهوته خلق البخل والشح، وإن اشتد حرصه على الشيء، واشتدت شهوته له، ولم يمكنه تحصيله إلا بالقوة الغضبية فاستعملها فيه، أورثه ذلك العدوان والبغي والظلم، ومنه يتولد الكبر والفخر والخيلاء.

فالنهر مثال هاتين القوتين: الغضبية والشهوانية، وهو منصب في جدول الطبيعة ومجراها إلى دور القلب وعمرانه، يخربها ويتلفها ولا بدَّ.

فالنفوس الجاهلة الظالمة تركته ومجراه فخرب ديار الإيمان، وهدم عمران الإسلام، وقلع أشجاره، وأنبت موضعها كل شجرة خبيثة.

وأما النفوس الزكية الفاضلة فإنها رأت ما يؤول إليه أمر هذا النهر فافترقوا ثلاث فرق:

فأصحاب المجاهدات والخلوات والتمرينات راموا قطعه من ينبوعه فأبت عليهم حكمة الله، وما طبع الله عليه الجبلة البشرية، ولم تنقد له الطبيعة البشرية فاشتد القتال، وحمى الوطيس فانقطعوا ولم يصلوا.

وفرقة أعرضوا عنه، وشغلوا أنفسهم بالأعمال، ولم يجيبوا دواعي تلك الصفات، مع تخليتهم إياها على مجراها، واشتغلوا بتحصين العمران، وأحكام بنائه وأساسه.

فهؤلاء صرفوا قوتهم وإرادتهم في العمارة والتحصين، وأولئك صرفوها في قطع المادة الفاسدة من أصلها خوفاً من هدم البناء.

والفرقة الثالثة: رأت أن هذه الصفات ما خلقت عبثاً ولا سدىً، وأنها بمنزلة ماء يسقى به الورد والشوك، وأن ما خاف منه أولئك هو سبب الفلاح والنجاة.

فرأوا أن الكبر نهر يسقى به العلو والفخر، والبطر والظلم، والشر والعدوان .. ويسقي به علو الهمة .. والأنفة والحمية، والمراغمة لأعداء الله وقهرهم، فصرفوا مجراه إلى هذا الغراس.

فأبقوه على حاله في نفوسهم، لكن استعملوه حيث يكون استعماله أنفع، كالخيلاء فهي مبغوضة للرب، لكنها في الحرب أمام الأعداء، وعند الصدقة محبوبة للرب.

وكذلك خلق الحسد مذموم، لكن صرفه إلى الحسد المحمود الذي يوصل إلى المنافسة في الخير الذي يحبه الله أمر محمود.

قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: «لا حَسَدَ إلا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا» متفق عليه (١).

وكذلك خلق الحرص، فإنه من أنفع الأخلاق وأوصلها إلى كل خير، وشدة الطلب بحسب قوة الحرص، فلا نقطعها ولكن نوجهها إلى ما ينفع النفس في معادها، ويزكيها بالإيمان والعبادات والطاعات.

فقوة الحرص لا تذم، وإنما يذم صرفها الى ما يضر الحرص عليه من الشهوات والمعاصي، أو لا ينفع وغيره أنفع للعبد منه.

وكذلك قوة الشهوة من أنفع القوى للعبد، وأوصلها إلى كماله وسعادته، فإنها تثمر المحبة، وبحسب شهوة العبد للكمال والاستقامة يكون طلبه.

وصدق الشهوة وقوتها وكمالها يحمل الإنسان على بيع مشتهى دنيء خسيس بمشتهى أعلى منه، وأجل، وأرفع من الطاعات والحسنات والجنات.

وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجيء بها الرسل فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه ويترك الطبيب.

فالأنبياء والرسل هم أطباء القلوب والأبدان، وتزكية النفوس مسلَّم إليهم، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم وعلى أيديهم.

والله عزَّ وجلَّ إنما بعثهم لهذه التزكية، وولاهم إياها كما قال سبحانه: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢)} [الجمعة: ٢].

وقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» أخرجه أحمد والبخاري في الأدب المفرد (١).

ومن سنة الله عزَّ وجلَّ في عباده أن الناس إذا غيروا ما بأنفسهم فانتقلوا من الكفر إلى الإيمان، ومن معصية الله إلى طاعة الله، غيَّر الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء والذلة والشدة، إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة، وكذلك الله عزَّ وجلَّ لا يغير ما بقوم من النعمة والإحسان ورغد العيش حتى يغيروا ما بأنفسهم، فينتقلوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعات إلى المعاصي، ومن شكر النعم إلى البطر بها، فيسلبهم الله عند ذلك إياها: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١)} [الرعد: ١١].

خصائص الأخلاق في القرآن

الأولى: أنّ في الإنسان انبعاثاً داخلياً فطرياً إلى الأخلاق، يساير جميع مراحله يمكن التعبير عنه به (الحاسة الأخلاقية)، التي يميّز بها بين الخير والشر، كما يميّز بالحاسة الجمالية المودعة فيه بين الجميل والقبيح، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[1].

ومن هذه الحاسة الخلقية نستطيع أن نؤسس القواعد الخُلقية والقانون الأخلاقي العام.

ولكن قد يلقى هذا النور الباطني الفطري موانع توجب طمسه، وهي كثيرة، مثل العادات، والوراثة، والبيئة، وشواغل الحياة المادية، بل إنّ نفس القواعد الخلقية الفطرية لم تكن كافية في إرضاء الجميع، بحيث تكون قاعدة عامة تجلب رضاء الكلّ، ولهذا كان لا بد من بعث الأنبياء ذوي النفوس المصطفاة، الملهمة بالوحي، ليثيروا للناس دفائن العقول، ويزيلوا الغشاوة عن النور الفطري، ويكمّلوا ما كانوا يحتاجون إليه في إكمالهم، فكان نور الوحي الإلهي مكملاً لنور الفطرة التي أودعها الله في الإنسان، فكان «نور على نور».

الثانية: أن القواعد الخلقية هي تلك القواعد التي تخاطب الضمير

(١) الشمس، الآيتان ٧ و ٨.

الإنساني، ويرغب إليها الإنسان لأجل الحقيقة ذاتها وأهميتها الخلقية، فهي لم تكن غريبة عليه، فكانت لها صفة الإلزام، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾[1]، ويظهر ذلك بوضوح في تلك الآيات القرآنية التي ترجع الإنسان إلى عواطفه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

الثالثة: إنّ القرآن الكريم يقرّر أنّ الإنسان مسؤول عن عمله، فقد أظهر فكرة المسؤولية الأخلاقية الفردية والاجتماعية بالمعنى الكامل، قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[5]، فكلّ شخص مسؤول بالشروط المقرّرة عن أفعاله الخاصة، الشعورية، والإرادية، كما أنه فرد من مجتمع يحمل جانباً من المسؤولية الاجتماعية.

الرابعة: أنّ الإنسان حرّ في اختيار أفعاله الإرادية، ولا شيء ـ سواء كان داخلياً أو خارجياً ـ يستطيع إرغامه وسلب حريّته، قال تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[7]، بل يعتبر القرآن أنّ

(١) القيامة، الآيتان ١٤ ـ ١٥.
(٢) الحجرات، الآية ١٣.
(٣) الحجرات، الآية ١٢.
(٤) النجم، الآية ٣٩.
(٥) الإسراء، الآية ١٥.
(٦) البقرة، الآية ٢٨٤.
(٧) الأحزاب، الآية ٥٤.

أساس المسؤولية هي الحرية، وقد مضى في ضمن الآيات القرآنية البحث عن ذلك مفصّلاً، وقد تنبّه إلى ذلك الفيلسوف الغربي (كانت) بقوله: «يستحيل علينا أن نتصوّر عقلاً في أكمل حالات شعوره، يتلقّى بشأن أحكامه توجيهاً من الخارج.. فإرادة الكائن العاقل لا تكون إرادته التي تخصّه بالمعنى الحقيقي، إلا تحت فكرة الحرية».

الخامسة: الجزاء الأخلاقي، وفقاً لقانون أن كلّ مسؤولية لا بد لها من جزاء. وقد بيّن القرآن الكريم أنّ كلّ عمل له جزاء خاص يلائمه، وقد تقدّم في الآيات السابقة ما يرتبط بالمقام.

السادسة: النية وأنّ كلّ عمل لا بد له من نية، وإعطاء الأهمية للنية والبواعث الكامنة في النفس وراء العمل، ويعتبر أن قيمة كلّ عمل تدور مدار شدة التنزّه، وأن الهدف من كل عمل هو ابتغاء وجه الله تعالى.

السابعة: أنّ كلّ عمل لا بد أن يقرن بالاعتقاد، كما هو ظاهر الآيات الشريفة التي يقرن فيها بين الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2].

---

(١) سبأ، الآية ٤.

(٢) العنكبوت، الآية ٩.

والجامع بين المعنى اللغوي والاصطلاحي هو: استعمال ما يحمد عليه من الأقوال والأفعال.

إن الآداب الاجتماعية لها آثار كبيرة في تنشئة النفس المؤمنة على الخلق القويم الذي يثمر التمسك بالشريعة الإسلامية، فان الإسلام حريص على أن تكون النفس مهذبة بعيدة عن كل أسباب الضلال والانحراف.

من اجل ذلك جاءت الشريعة بآداب تميز المسلم من غيره، وتظهر عظم وسمو ورفعة هذه الشريعة الغراء.

ولذلك جاءت سورة النور بوصايا نافعة ونصائح غالية، ومواعظ نبيلة، وتوجيهات سديدة لكي يأخذ الإنسان بها حتى يصل إلى منتهى الغاية والتأدب بالصورة التي ارتضاها الله ﷻ وارتضاها النبي ﷺ ورحم الله ابن القيم حيث يقول: " وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره"( ).

المبحث الثاني

أولاً: الاستئذان

الاستئذان خلق عظيم حثت عليه سورة النور وأوصت به.

فالاستئذان لغة: طلب الإذن وهو مصدر استأذن، وتدل المادة التي اخذ منها على أمرين:

الأول: إذن كل ذي إذن.

الثاني: العلم والإعلام، تقول العرب: قد أذنت بهذا الأمر، أي علمت وآذنين فلان أعلمني، وفعله بإذني: أي بعلمي..... وقد آذنته بكذا، أي أعلمته، واستأذنت فلانا استئذانا طلبت إذنه وأذنت أكثرت الإعلام بالشيء وآذنتك بالشيء أعلمتك( ).

واصطلاحا: عرفه الحافظ بن حجر رحمه الله بقوله: " طلب الإذن في الدخول لمحل لا يملكه المستأذن"( ).

ومن خلال قراءة الآيات الدالة على الاستئذان في السورة يمكن تقسيم الاستئذان إلى أقسام:

الأول: الإذن فيمن يملك ذلك من الناس، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٨)

ورد في سبب نزول هذه الآية: أن امرأة من الأنصار جاءت إلى النبي ﷺ وقالت: يا رسول الله إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها احد وانه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي وأنا على تلك الحال فكيف اصنع؟ فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٥٥) "ن استباحة حرمة البيت من الداخلين دون استئذان يجعل أعينهم تقع على عورات أو تلتقي بمفاتن تثير الشهوات وتهيئ الفرصة للغواية الناشئة من اللقاءات العابرة والنظرات الطائرة التي قد تتكرر فتحول إلى نظرات قاصدة تحركها الميول التي أيقظتها اللقاءات الأولى على غير قصد ولا انتظار وتحولها إلى علاقات آثمة بعد بضع خطوات أو إلى شهوات محرمة تنشأ عنها العقد النفسية والانحرافات"(٥)

لقد كان المجتمع الجاهلي لا يراعي حرمة البيت ولا حرمة ساكنيه، فيدخل الرجل منهم البيت بدون استئذان ثم يقول: لقد دخلت وقد يكون صاحب البيت مع أهله في حال لا يجوز أن يراهما احد فيقع الإحراج من ذلك.وفي هذه الآية تنبيه من الله ﷻ لبني ادم الذين كرمهم وفضلهم بالمنازل وسترهم فيها عن الأبصار وملكهم الاستمتاع بها على الانفراد ومنع الخلق كلهم أن يطلعوا على ما فيها من خارج أو يلجوها من غير إذن أربابها، أدبهم بما يرجع إلى الستر عليهم لئلا يطلع احد على عورة غيره(٥).

وجاء التعبير القرآني الاستئناس بمعنى الاستئذان بناء على انه استفعال من آنس الشيء بالمد أي اعلمه أو أبصره، فالاستئناس استعلام والمستأذن طالب العلم بالحل، هل يراد دخوله أم لا؟[Õ]

قال الإمام مالك رحمه الله: " الاستئناس فيما نرى والله اعلم هو الاستئذان ، وكذا في قراءة أبي وابن عباس وسعيد بن جبير :حتى تستأذنوا"[Õ] .

وقيل: الاستئناس خلاف الاستيحاش فهو من الأنس بالضم خلاف الوحشة فهو كالمستوحش من خطر الحال عليه فإذا أذن له استأنس وهو في ذلك كناية أو مجاز، وقيل الاستئناس من الإنس بالكسر بمعنى الناس حتى يطلبوا معرفة من في البيوت من الإنس[×].

ولا شك أن اقرب المعاني للفظ الاستئناس هو الاستئذان.

والقرآن الكريم حين يعبر عن الاستئذان بالاستئناس فهو تعبير يوحي بلفظ الاستئذان، ولطف الطريقة التي يجيء بها الزائر، فتحدث في نفوس أهل البيت استئناسا به، واستعدادا لاستقباله وهي لفتة دقيقة لطيفة لرعاية أحوال النفوس ولتقدير ظروف الناس في بيوتهم وما يلابسها من ضرورات لا يجوز أن يشقى بها أهلها ويحرجوا أمام الطارقين في ليل أو نهار[ÑÎ].

ثانيا: استئذان الأقارب: إن الإسلام منهاج للحياة، إذ هو ينظم حياة الإنسان في جميع أطورها ومراحلها قال الله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[ÑÏ]

في هذه الآية الكريمة أكدت على أهمية استئذان الأقارب بعضهم على بعض، ولما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض الآخر، فأمر الله ﷻ

المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مم ملكت إيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم ثلاثة أحوال:

الحال الأول: من قبل صلاة الغداة أي صلاة الفجر، وذلك لان الناس إذ ذاك يكونون نياما في فرشهم.

الحال الثاني: حين تضعون ثيابكم من الظهيرة، أي في وقت القيلولة، لان الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله.

الحال الثالث: من بعد صلاة العشاء، لأنه وقت النوم فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال لما يخشى من أن يكون الرجل على حال لا يجب أن يراه احد، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ﴾ فوجب على الخدم والأطفال أن يستأذن قبل الدخول(ÑÌ) .

ولهذه الآية سبب في نزولها وهو: أن رسول الله ﷺ عث غلاما من الأنصار يقال له مُدْلج إلى عمر بن الخطاب ﷺظهيرة ليدعوه،فوجده نائما قد أغلق عليه الباب فدق عليه الغلام الباب فناداه ودخل،فاستيقظ عمر وجلس فانكشف منه شيء فقال عمر : وددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول علينا في هذه الساعات إلا بإذن ثم انطلق إلى رسول الله ﷺفوجد هذه الآية قد أنزلت فخر ساجدا لله تعالى(ÑÑ).

روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلين سألاه عن الاستئذان في ثلاث عورات التي أمر الله بها في القرآن فقال ابن عباس: إن الله ستير يحب الستر، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم، ولا مجال في بيوتهم، فربما فاجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيمة في حجره وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمى الله، ثم جاء الله بعد بالستوره فبسط الله عليهم الرزق، فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به(ÑÒ).

فهذه جملة من الآداب مستفادة من الآيات الواردة في سورة النور التي نحن بصددها وهي تتحدث عن الاستئذان.

المبحث الثالث

ثانياً: حفظ اللسان

لعل من أهم الآداب التي أرشدت إليه هذه السورة حفظ اللسان ، وعدم الخوض فيما لا فائدة فيه.

إن الكلمة في دين الله ﷻ شان عظيم فالإسلام كلمة والكفر كلمة والزواج كلمة والطلاق كلمة، فاللسان خطره وجرمه أثيم، ولا يجوز للمسلم أن يطلق العنان للسانه يتكلم متى يشاء وكيفما يشاء.

واللسان هو ملك الأعضاء ووزير البدن، وبصلاحه صلاح البدن، وبفساده فساد للبدن ولاشك، ولذا لما قيل للقمان الحكيم اذبح شاة واحضر أطيب ما فيها فذبحها واحضر القلب واللسان، وبعد أيام قيل له: اذبح شاة واحضر أخبث عضوين فيها فذبحها وجاء بالقلب واللسان، فقيل له: طلبنا منك أطيب عضوين فجئت بالقلب واللسان، وطلبنا أخبث عضوين فجئت بالقلب واللسان، فقال: هما أطيب ما في البدن إذا طابا، وأخبث ما فيه إذا خبثا(٥٥).

ولذلك يذكر لنا النبي ﷺ عظم اللسان وخطره في الوقت نفسه فيقول: " إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان فتقول اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا"(٥٥).

والحفظ لغة: مصدر قولهم حفظ يحفظ، وهو مأخوذ من مادة " ح ف ظ" التي تدل على مراعاة الشيء حفظا، وقيل: حفظت الشيء حفظا: أي حرسته(٥٥).

واللسان: هو جارحة الكلام ، ومن ذكره قال في الجمع: ثلاثة السنة، ومن أنثه قال: ثلاث السن(٥٥).

فحفظ اللسان : هو صون الإنسان لسانه عن كل خطا ما يغضب الله ﷻ من كذب وغيبة ونميمة، وكل ما لا يعنيه.

وفي سورة النور إشارة واضحة إلى حفظ اللسان والتثبت في إطلاق الأحكام ، وعدم إطلاق الشائعات، وذلك حفظا للمجتمع بأسره قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٥]

إن ترك الألسنة تلقى التهم هكذا جزافا على المحصنات وهن العفيفات الحرائر ثيبات أو أبكارا بدون دليل قاطع يترك المجال فسيحا لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئا بتلك الجرائم والتهم النكراء، وان هذا ليؤدي بالمسلمين إلى خطر عظيم، فأعراضهم مجروحة، وسمعتهم ملوثة، وإذا كل رجل شاك في أصله، وكل بيت مهدد بالانهيار، ويشاع بين المسلمين حالة من الشك والقلق والريبة[٥].

من اجل حفظ ذلك كله أوقع الشارع الحكيم فيمن أطلق لسانه في أعراض المسلمين حد القذف، وهو الجلد ثمانين جلدة جزاء على فعلته، فضلا عن جعله من الفاسقين الذين ترد شهادتهم فلا تقبل.

ثم عرضت السورة لأمر عظيم جدا، حيث وقع بعض المنافقين في عرض النبي ﷺ وفي أحب الناس إليه ، وهي الحصان الرزان عائشة بنت الصديق رضي الله عنها وعن أبيها. قال الله ﷻ :﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ، لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ، وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ

تَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ، يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ، وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(أ٥)

فهذه الآيات كلها نزلت في شان عائشة رضي الله عنها حين رماها أهل الافك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب والفرية، حتى انزل الله ﷻ براءتها من فوق سبع سموات.

والقران الكريم يبين لنا قبح من تكلم بغير علم ولا دليل ففي قوله هذا جعل حياة النبي ﷺ في حرج شديد، إذ عرض النبي ﷺ وهو الطهر والعفاف يتكلم فيه، فيقول ﷻ ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾لسان يتلقى عن لسان لا تدبر ولا تمحيص ولا إمعان نظر حتى لكان القول لا يمر على الأذن، ولا يتدبره القلب، وبعد ذلك عد الله ﷻ هذه الأمر الشنيع بأنه "عند الله عظيم" أي خطره عظيم، ولا يعظم عند الله ﷻ إلا الأمر الجليل.

ومن أهم آداب اللسان:

أولا: اجتناب فضول الكلام والتكلم فيما لا يعنيه: على الإنسان العاقل أن يدع فضول الكلام الذي لا طائل منه ولا نفع يعود عليه سواء كان دينيا أو دنيويا، ولذلك قال رسول الله ﷺ : " أكثر الناس ذنوبا أكثرهم كلاما فيما لا يعنيه"(أ٥).

ثانيا: ترك الفحش وبذاء اللسان: عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ "ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء"(٥)

عن أسامة بن زيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " إن الله تعالى يبغض الفاحش والمتفحش"(٥٨).

ثالثا: ومن الأدب ترك التشدق في الكلام وتكلف الفصاحة: عن ابن مسعود ﷺ، أن النبي ﷺ قال: " هلك المتنطعون" قالها ثلاثا (٥٩). وقال ﷺ: "سيكون قوم يأكلون

بألسنتهم، كما تأكل البقرة من الأرض" [69] وفي الحديث دلالة على شدة تشدقهم وتكلفهم في الكلام.

رابعا: ومن الأدب : اجتناب اللعن: على المسلم أن يعود لسانه الكف عن اللعن عن الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن العبد إذا لعن شيئا صعدت اللعنة إلى السماء فتغلق أبواب السماء دونها ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها ثم تأخذ يمينا وشمالا فإذا لم تجد مساغا رجعت إلى الذي لعن فإن كان لذلك أهلا وإلا رجعت إلى قائلها"[70] .

خامسا: ومن الأدب ترك الغيبة: أن الغيبة من اخطر الأمراض على الإنسان والمجتمع، فضلا عن كونها معصية، فعلى الإنسان أن يكف لسانه عن الغيبة والوقوع في أعراض المسلمين، عن أبي برزة الاسلمي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : " يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فان من اتبع عوراته تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه في بيته"[71].

سادسا: ومن الأدب اجتناب النميمة: النمام مريض القلب ينقل الكلام بقصد الأضرار وإيقاع الفساد، والذي عود لسانه النميمة فقد عرض نفسه لعذاب القبر قبل عذاب الآخرة عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ مر على قبرين فقال إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير ، أما احدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله"[72].

وخير وصية يوصي بها النبي ﷺ أمته بقوله: " من صمت نجا" [73].

المبحث الرابع

أهمية السلام في تقوية الصلة بين أفراد المجتمع

ومن الآداب الفاضلة التي أشارة إليها سورة النور أيضا السلام وذلك لما فيه من آثار قيمة في تماسك المجتمع وإشاعة المحبة بين أفراده ، وقد وردت جملة من الأحاديث

تدل على السلام وعظم أجره ، ولابد لم يروم إشاعة المحبة والألفة بين المجتمع أن يسعى جاهدا إلى إفشاء السلام.

والسلام في اللغة: السَّلامةُ، يقال: سَلِمَ يَسْلَمُ سَلاماً سَلامة، ومعنى السلام الذي هو مصدر من سلمت، أي انه دعاء للإنسان بان يسلم من الآفات في دينه ونفسه[٥١].

وعبر عنه الحافظ ابن حجر رحمه الله بقوله: " إفشاء السلام: المراد منه نشره سرا وجهرا"[٥٢].

الآيات الواردة في السلام:

أولا: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٥٣] .

ثانيا: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾[٥٤] .

الآية الأولى: ذكر الله ﷻ دخول البيوت بعد الاستئذان ذكر عقبه السلام على أهل البيت وذلك لما انه من آثار نفسية واجتماعية بالغة الأثر.

وفي الآية يؤدب المولى تبارك وتعالى عباده المؤمنين بالآداب الجليلة ويدعوهم إلى التخلق بكل أدب رفيع فبعد أن أمرهم بالاستئذان عند إرادة الدخول إلى بيوت الناس، أمرهم بالسلام على أهل المنزل لان ذلك مما يدعوهم إلى المحبة والوئام[٥٥].

وفي الآية الثانية الواردة بشان السلام يقول الله تبارك وتعالى:﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾[٥٦] أمر الله ﷻ، فإذا دخل الرجل بيته فوجد أحدا من أهل بيته سلم عليهم، وان لم يجد قال السلام عليكم ولا شك أن ذلك له اثر نفسي كبير فيسلم وان لم يجد أحدا لان فيه إزالة الوحشة بذكر الله ﷻ، إضافة إلى انه بركة من الله ﷻ ، عن أنس بن مالك ﷺ قال : قال لي رسول الله ﷺ : "يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم يكن بركة عليك وعلى أهل بيتك"[٥٧].

~~المبحث الثاني~~

غض البصر وحفظ الفرج

من الآداب المهمة التي نوهت بها سورة النور غض البصر وحفظ الفرج، لان التساهل بإطلاق الرجل بصره له آثاره السلبية في حياة الفرد والمجتمع عموما.

إن العرب قديما في جاهليتهم يتفاخرون بغض البصر، وفي هذا يتفاخر عنترة بن شديد فيقول:

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها[99]

فكيف بالمسلمين الذين شرفهم الله ﷻ وفضلهم على العالمين.

البصر لغة: اسم لآلة البصر الذي هو حاسة الرؤية، وأبصرت الشيء: رايته، والبصير : خلاف الضرير[100].

قال الله ﷻ مخاطبا نبيه ﷺ والمراد المسلمون عموما :﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[101]

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: " أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغمضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعا"[102].

وغض البصر :" كف النظر إلى ما يحرم النظر إليه، والغض هو إطباق الجفن على الجفن بحيث يمنع الرؤية"(×).

ولما كان البصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه وغضه واجب عن جميع المحرمات، وكل ما يخشى الفتنة من اجله"(×).

من اجل ذلك بين النبي ﷺ ضرر إطلاق البصر وسوء عاقبته فقال: "إياكم والجلوس في الطرقات، قالوا: يا رسول الله مالنا بُدّ من مجالسنا نتحدث فيها، فقال: " فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه" قالوا :وما حقه ؟ قال:" غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر"(×).

قال ابن القيم رحمه الله: "والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإن النظرة تولد الخطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة فيقع الفعل، ولا بد ما لم يمنع منه مانع، ولهذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر علي ألم ما بعده"(×).

ولهذا كان لغض البصر فوئد عظيمة جليلة القدر منها:

1- حلاوة الإيمان ولذته التي هي أحلى وأطيب وأكثر مما صرف بصره وتركه لله تعالى، فان من ترك شيئا عوضه الله ﷻ خيرا منه.

2- ومنها نور القلب وصحة الفراسة، وقد قيل: من عمر ظاهره بإتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة، وكف نفسه عن الشهوات، وغض بصره عن المحارم واعتاد أكل الحلال، لم تخطئ له فراسة، ومن جعله الله من المتفرسين فقد سلم من النظر المحرم والفاحشة، ولذا قال الله تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(×) وسر هذا الخبر: أن الجزاء من جنس العمل، فمن غض بصره عما حرم الله ﷻ عليه عوضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه، فكما امسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه(×).

الأخلاق عند الأنبياء (النبي يوسف عليه السلام) :

اصطفى الله سبحانه وتعالى من بين البشر رسلًا وأنبياء اكتملت فيهم الأخلاق حتّى كان كلّ واحدٍ منهم في أقواله وأفعاله ومعاملاته مع النّاس ترجمةً حقيقيّة صادقة للأخلاق والقيم النّبيلة، والمثل الرّفيعة، وقد كانت صفاتهم بحقّ قدوة للنّاس الذي يسعون إلى الكمال والرّقي والصّلاح.

ومن بين هؤلاء الأنبياء كان نبيّ الله يوسف عليه الصّلاة والسّلام الذي ذكر الله سبحانه وتعالى قصّته في سورة يوسف التي سمّيت باسمه ، فقد كان منهج يوسف عليه السلام في الارتقاء بالإنسان الذي هو عدة الحضارة ومحرك النهضة ومنفذ البرامج ومنجز المشاريع هو دعوته للتوحيد، وتعليمه حقيقة الإيمان بالله، وهذا الكون وهذه الحياة. وتسليحه بالأخلاق الفاضلة .

إذ ان فائدة التغيير تزول إذا لم يكن هناك إنسان أمين على منجزات التغيير، ويحمل القيم الداخلية التي تضمن استمرارية التغيير الخارجي، إخلاصه وصدقه وأمانته. إن التغيير يجب أن يمارسه الإنسان في المحتوى النفسي فيطور وينمي ذاته باتجاه الأفضل، ثم يجسد محتواه النفسي تغييرًا خارجيًّا ويحوله إلى ممارسة وتطبيق وتحقيق؛ لأن أحوال الناس وأوضاعهم الاجتماعية من الفساد والخير لا تتغير إلا إذا تغير محتوى الإنسان، وما هو عليه من الحق أو الباطل، هذا هو منطق القرآن والحياة؛ لكي يرسي نظامًا لا بد أن يُهيَّأ له إنسان أولاً.

وأما الرصيد الأخلاقي والقيمي الذي ساهم في نجاح المشروع الإصلاحي لنبي الله يوسف عليه السلام ، فقد كان متجسدًا في شخصيته من صفات حميدة وأخلاق كريمة منها :

١- الصّبر على البلاء، فقد جرت سنّة الله في الصّالحين والأنبياء أن يتعرّضوا للابتلاءات والفتن التي تمحّص قلوبهم، وتغفر ذنوبهم، وترفع من شأنهم ودرجاتهم عند الله، وقد نال نبيّنا يوسف عليه السّلام حظًا من هذا الابتلاء حينما ألقاه إخوته في البئر أوّل مرّة نتيجة الغيرة والحسد التي أضمروها في نفوسهم اتجاهه، كما تعرّض للابتلاء وهو في بيت العزيز حين جاءته امرأة العزيز وهو في عزّ الشّهوة وأوج اضطرامها لتراوده عن نفسه وتزيّن له عمل الفاحشة، كما تعرّض للابتلاء أيضًا حينما زجّه الظّالمون في السّجن فلبث فيه بضع سنين، وقد قابل عليه الصّلاة والسّلام كل تلك الابتلاءات بالصّبر والثّبات على عقيدته ودعوته.

٢- الهمّة العالية في الدّعوة إلى دين الله تعالى، ففي أشدّ اللّحظات شدّة لم ينسَ يوسف عليه السّلام الدّعوة إلى الله؛ ففي السّجن اجتمع رفقاء السّجن حوله يتعلّمون منه حينما توسّموا فيه الصّلاح والتّقوى، وحينما سألوه عن تعبير الرّؤى ابتدأ يوسف عليه السّلام حديثه معهم بتذكيرهم بحقّ الله تعالى على العباد ووجوب توحيده وعبادته قبل أن يعبّر لهم رؤاهم وهذا يدلّ على أنّ أمر الدّعوة إلى دين الله لم يغب عن يوسف عليه السّلام في أي لحظةٍ من لحظات حياته .

٣- الصّدق وقوّة البصيرة، فالله سبحانه وتعالى لا يعطي تعبير الرّؤى إلاّ لمن تميّز بصفاء السّريرة وطهارتها، ونفاذ البصيرة وقوّتها، وصدق الحديث وهذه علامات المفسّرين

ومعبري الرّؤى من النّاس فما بالك بالأنبياء الذين هم أولى بتلك الصّفات وأجدر بالتّحلي بها .

٤- العفو والتّسامح؛ فعلى الرّغم من الأذى الكبير الذي تعرّض له يوسف عليه السّلام على يد إخوته، والكيد والحسد الذي ملأ قلوبهم اتجاهه، إلا أنّه في لحظات القوّة والتّمكين لم يعاملهم بمثل ما عاملوه به وإنّما عفا عنهم وسامحهم على فعلتهم بأخلاق النّبي الكريم صاحب الخلق الرّفيع اليقين بالله، فقد كان يوسف عليه السلام مثالًا في اليقين بأمر الله وموعوده، ولقد أدرك مبكرًا أنّ الله سبحانه وتعالى لن يخذله أو يسلمه وقد كان حفظه في البئر حينما رموه إخوته أوّل مرّة أولى علامات الحفظ الربّاني والعناية الإلهيّة.

٥- حفظه للأمانة وصيانته لها من خلال ثقته بنفسه بالاعتماد على ربه : { قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} {يوسف: ٥٥.[

٦- وضع اللين في موضعه ، والشدة في موضعها : {وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ * فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ} {يوسف: ٥٩، .[فبداية الآية لين، ونهايتها شدة .

٧- الحلم عند الغضب ليضبط نفسه} قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ} {يوسف: ٧٧.[

٨- العفة عن الشهوات؛ ليضبط نفسه، وتتوافر قوته النفسية} كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} {يوسف: ٢٤.[

٩- استعداده للعلم وحبه له وتمكنه} رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} {يوسف: ١٠١.[

١٠- شفقته على الضعفاء وتواضعه مع جلال قدره، وعلو منصبه، فقد خاطب الفتيين السجينين فقال} :يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} {يوسف: ٣٩ .[وحادثهما في أمور دينهما ودنياهما بقوله} :قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ} {يوسف: ٣٧ .[وقال تعالى} :إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} {يوسف: ٣٧ .[

١١- العفو عند المقدرة} قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} {يوسف: ٩٢.[

١٢- بر الوالدين وإكرام العشرة} , اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ} {يوسف: ٩٣.[

أخلاق أهل البيت

المعنى اللغوي لـ (أهل البيت

أهل البيت : لغةً : سُكَّانُهُ ، و (آل الرجل) : أهلُهُ ، ولا يُستعمل لفظ (آل) إلا في أهل رجل له مكانة.

المعنى الاصطلاحي لـ (أهل البيت

وقد جاء ذكر أهل البيت (في آيتين من القرآن ، الأولى هي : (رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُه عَلَيْكُم أَهْلَ البَيتِ) هود : ٧٣.

والثانية هي : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذهِبَ عَنْكُم الرِّجْسَ أَهْلَ البَيتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطهِيراً) الأحزاب : ٣٣ ، واتفق المفسرون أن المراد بـ (أهل البيت) في الآية الأولى هو النبي إبراهيم الخليل) عليه السلام) ، وبالآية الثانية هو النبي محمد (صلى الله عليه وآله.

وتبعاً للقرآن استعمل المسلمون لفظ (أهل البيت) و (آل البيت) في أهل بيت محمد (صلى الله عليه وآله) خاصة ، واشتهر هذا الاستعمال حتى صار اللفظ عَلَماً لهم ، بحيث لا يفهم منه غيرهم إلا بالقرينة ، كما اشتهر لفظ المدينة بيثرب مدينة الرسول صلى الله عليه وآله.

وقد اتفقت كلمة المسلمين على أن الإمام علي بن أبي طالب ، وزوجته فاطمة الزهراء ، وابنيهما الحسن والحسين (رضوان الله عليهم اجمعين) من أهل البيت في الصميم ، وأن شجرة النسب النبوي تنحصر فروعها في أبناء فاطمة (رضي الله عنها) ، لأن النبي (صلى الله عليه وآله) لم يُعقب إلا من وُلدها.

أخلاق أهل البيت

أخلاق أهل البيت وما أصابهم من المِحَن في سبيل تمسكهم بما يرونه الحق والعدل ، وكل ما يرونه حقاً فهو الحق ، يجب أن نعلم أنَّ حقيقة الإسلام هي الشهادة لله تبارك وتعالى بالوحدانية ، ولمحمد (صلى الله عليه وآله) بالرسالة ، أي : لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله ..

كان الإمام علي (رضي الله عنه) صلباً في الحق ، لا تأخذه فيه لومة لائم ، ولم يكن الحق في مفهومه ما كان امتداداً لِذَاته وسلطانه ، فقد تساهل في حقوقه الخاصة حتى استغلَّ أعداؤه هذا التساهل .

وسقى (رضي الله عنه) أهل الشام من الماء بعد أن منعوه منه ، حتى كاد يهلك جنده عطشاً ، وإنما كان الحق في مفهومه أن لا يستأثر إنسان على إنسان بشيء كائناً من كان.

فذات يوم جاءته امرأتان تشكوان فقرهما ، فأعطاهما ، ولكنَّ إحداهما سألته أن يفضِّلَها على صاحبتها لأنها عربية ، وصاحبتها من الموالي ، فأخذ(رضي الله عنه) قبضة من تراب ونظر فيه ، وقال : لا أعلم أن الله فضّل أحداً من الناس على أحد إلا بالطاعة والتقوى ، وأبى (رضي الله عنه) أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة ، إيثاراً للخصاص التي يسكنها الفقراء.

فكان (رضي الله عنه) يلبس المرقَّع حتى استحيا من راقعه كما قال ، وكان راقعه ولده الحسن (رضي الله عنه) ، وكان (رضي الله عنه) يأكل خبز الشعير الذي كانت تطحنه امرأته فاطمة الزهراء (رضي الله عنها) بيدها ، وكل ذلك كان مواساة للكادحين والمعوزين.

وأثنى رجل من أصحابه (رضي الله عنه)) عليه ، فأجابه (بقوله : إن من أسخف حالات الوُلاة عند صالح الناس أن يُظنَّ بهم حُبُّ الفخر ، ويوضع أمرهم على الكبر ، وقد كرهتُ أن يكون جالٍ في ظنكم أني أحبُّ الإطراء واستماع الثناء ، فلا تكلموني بما تُكلَّم به الجبابرة.

لقد عَظُم الإمام علي (رضي الله عنه) في تمسكه بالحق ، فحاسب عليه نفسه ، وكذلك عُمَّاله حتى أغضب الكثير منهم ، فبعضهم تركه وهرب إلى معاوية ، وأصبح عوناً له بعد أن كان حرباً عليه.

و ظهر بعض هذه الصفات في شخص أحدهم أكثر من الآخرين تبعاً للظروف ومقتضيات الأحوال ، فظهر في الحسن بن علي (رضي الله عنه) حُبُّه للسِّلم وكرهه للحرب ، لأن عصره كان عصر الفتن والقلاقل ، فبايعه أهل العراق بالخلافة بعد وفاة أبيه أمير المؤمنين (رضي الله عنه) ، وكان جيشه يتألف من أربعين ألفاً.

ولما رأى (رضي الله عنه) أن معاوية مُصرٌّ على الحرب تنازل له عن الخلافة ، مُؤثِراً حقن الدماء وصالِح الإسلام على كل شيء.

وظهرت صلابة الإمام الحسين (رضي الله عنه) في الحق ، وضحَّى بنفسه وأهله وأصحابه ، لأن يزيد بن معاوية لم يترك مجالاً للمهادنة.

روي انه جرى بين الحسين وبين محمد بن الحنفية كلام ، فكتب ابن الحنفية الى الحسين : «اما بعد يا اخي فان ابي واباك علي لا تفضلني فيه ولا افضلك ، وامك فاطمة بنت رسول الله ، لو كان ملء الارض ذهباً ملك امي ما وفت بأمك ، فاذا قرأت كتابي هذا فصر الي حتى تترضاني . فانك احق بالفضل مني ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته» ففعل الحسين فلم يجر بعد ذلك بينهما شيء .

وعن محمد بن جعفر وغيره قالوا : وقف على علي بن الحسين (رضي الله عنه) رجل من اهل بيته فأسمعه وشتمه ، فلم يكلمه ، فلما انصرف قال لجلسائه : لقد سمعتم ما قال هذا الرجل ، وانا احب ان تبلغوا معي اليه حتى تسمعوا مني ردي عليه .

فقالوا له : نفعل ، ولقد كنا نحب ان يقول له ويقول . فأخذ نعليه ومشى

وهو يقول» : والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين «فعلمنا انه لا يقول له شيئاً .

قال : فخرج حتى اتى منزل الرجل ، فصرخ به ، فقال : قولوا له هذا علي بن الحسين . قال : فخرج متوثباً للشر ، وهو لا يشك انه انما جاء مكافئاً له على بعض ما كان منه .

فقال له علي بن الحسين : يا اخي انك وقفت علي آنفاً وقلت وقلت فان كنت قلت ما في فأستغفر الله منه ، وان كنت قلت ما ليس في فغفر الله لك . قال : فقبله الرجل بين عينيه ، وقال : بل قلت فيك ما ليس فيك وانا احق به .

المحور الأول: الإيمان والقرآن والثبات:

تمهيد

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[آل عمران: ٢٠٠]، هذه الآية من القرآن الكريم تجمع الإيمان والثبات فالقرآن الكريم هو الدستور الجامع لأحكام الإسلام، وهو المنبع الذي يفيض بالخير والحكمة على القلوب المؤمنة وهو أفضل ما يتقرب المتعبدون بتلاوته ولقد أقبل الصحابة على القرآن حفظاً وتعبداً وتطبيقاً لأحكامه، يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) فيما ترويه السيدة عائشة رضي الله عنها: (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران) رواه البخاري ومسلم .

والصحابة الكرام أمثال مصعب بن عمير هم الذين نزل فيه قول الله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾[الأحزاب: ٢٣].

① الصحابي الجليل: (سالم مولى أبي حذيفة) :

نسبه: هو سالم بن معقل من أهل اصطخر، وقد أعتقته أمرأة من الأنصار وهي ثبيتة بنت يعار وهي زوجة أبي حذيفة بن عتبة، وقد أصبح سالما مولى لأبي حذيفة (ولهذا يمكننا القول إنه جمع بين فضيلة المهاجرين والأنصار)، وقد أحسن أبوحذيفة معاملته وزوجه من ابنة أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة[9].

مناقبه:

روى البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص: (خذوا القرآن من أربعة من ابن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل)[10].

وروى أحمد والحاكم عن عائشة قالت: "استبطأني رسول الله ذات ليلة فقال: ما حبسك؟ قلت: إن في المسجد لأحسن ما سمعت صوتا بالقرآن فأخذ رداءه

وخرج يسمعه ، فإذا هو سالم مولي أبي حذيفة، فقال: الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك"[11]. وقد كان لواء المهاجرين يوم اليمامة (وهي معركة المسلمين مع مسيلمة الكذاب) مع سالم مولى أبي حذيفة – فلما انكشف المسلمون قيل لسالم: نخشى أن نؤتى من قبلك فقال : بئس حامل القرآن أنا إن فررت. فقطعت يمينه فأخذه بيساره فقطعت فاعتقه إلى أن صرع ، فقال لأصحابه ما فعل أبوحذيفة ؟– يعني مولاه – قيل قتل – قال فأضجعوني بجنبه [12].

ومما يدل على مكانة سالم لدى كبار الصحابة قول عمر –رضي الله عنه – عندما طعن وأدركه الموت: "لو أدركني أحد رجلين ثم جعلت له الأمر لوثقت به ، سالم مولي أبي حذيفة، وأبو عبيدة بن الجراح"[13].

وعن عمر بن الخطاب قال: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر سالم مولى أبي حذيفة فقال: إن سالما شديد الحب لله عز وجل". وعن شهر بن حوشب قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه": لو استخلفت سالما مولى أبي حذيفة فسالني عنه ربي عز وجل ، ماحملك على ذلك؟ لقلت: سمعت نبيك صلى الله عليه وسلم يقول: يحب الله ورسوله حباً من قلبه".

وخلاصة القول في سيرة سالم مولي أبي حذيفة. إنه كان قوي الإيمان، يحب الله ورسوله، وكان من أهل القرآن، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يؤخذ القرآن منه، وأنه كان مثالا في الشجاعة والثبات، يدل على ذلك المشهد الرائع لثباته واستشهاده في قتال المرتدين في معركة اليمامة، رضوان الله عليه.

المحور الثاني: الهجرة والجهاد:

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ (الصف: ١٠ – ١٣).

ويقول الله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (آل عمران: ١٤٦).

ويقول الله تعالى: ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (التوبة: ٤١).

٢ الصحابي الجليل: (أبو أيوب الأنصاري):

يعرف كثير من المسلمين هذا الصحابي بأنه الرجل الذي نزل النبي صلى الله عليه وسلم ضيفا عليه عندما هاجر إلى المدينة، وهذا شرف عظيم لأبي أيوب ولزوجته أم أيوب ولقومه بني النجار أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل شرف للأنصار جميعا الذين مدحهم الله في كتابه العزيز في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحشر: ٩).

نسبه: أبو أيوب الأنصاري هو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة ينتهى نسبه إلى بني النجار أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ إن سلمى بنت عمرو والدة عبدالمطلب منهم [14].

إسلامه وضيافته للنبي صلى الله عليه وسلم:

أسلم أبو أيوب على يد مصعب بن عمير سفير رسول الله صلى الله عليه وسلم للمدينة حيث أسلم على يده كثير من الأنصار .

وقد كان أبو أيوب من أصحاب بيعة العقبة الثانية في السنة الثالثة عشرة، وهي بيعة الجهاد التي مهدت الطريق لهجرة النبي صلى الله عليه وسلم للمدينة[15].

عندما بركت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في ديار بني النجار ، سارع أبو أيوب وحمل رحل النبي صلى الله عليه وسلم إلى داره، وأراد غيره من الأنصار أن ينزل النبي صلى الله عليه وسلم معهم ولكنه النبي صلى الله عليه وسلم قال: المرء مع رحله وحل ضيفا على أبي أيوب رضي الله عنه[16].

وقد كان البيت من طابقين. ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في

سفل البيت ولكن تحرج أبو أيوب من ذلك وطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينتقل للطابق الأعلى، إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم فضل أن يبقى حيث هو، وقال صلى الله عليه وسلم: هذا أرفق بنا وبمن يغشانا. وقد انكسر حب (جرة ماء) لأبي أيوب فقام هو وزوجته ينشفان الماء بلحافهم الذي لايملكون غيره، خوفا من أن ينزل الماء على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أبي أيوب الأنصاري ومصعب بن عمير سفير الإسلام الأول[17].

وقد شهد أبو ايوب المشاهد كلها من رسول الله صلى الله عليه وسلم بدر وأحد والخندق ولم يتخلف عن غزوة قط، وكان يتصف بالهدوء والصمت رضي الله عنه [18].

بايع أبوايوب الخلفاء الراشدين جميعا، ولم يتخلف عن الجهاد إلا مرة واحدة في خلافة معاوية بن أبي سفيان، لأنه وجد في نفسه من أمير الجيش، ولكنه عاد وندم وقال لنفسه: ما علي من ولي علي. وخرج للجهاد وقد تقدمت به السن وهو يتلو قوله الله تعالى: (انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا)، ويقول: "لا أجدني إلا خفيفا أو ثقيلا"[19].

وقد وفد أبو أيوب على عبدالله بن عباس وكان أميرا على البصرة في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه – فبالغ ابن عباس في إكرامه، وقال له : لأجزينك على إنزالك النبي صلى الله عليه وسلم عندك، فاعطاه كل ما في المنزل فبلغ ذلك أربعين ألفا، وأعطاه عشرين مملوكا ومتاع البيت كله [20].فهل تعجب من أبي أيوب، أم تعجب من ابن عباس ابن عم رسول الله صلى الله وسلم وترجمان القرآن.

وفـــاته :

خرج أبو أيوب الأنصاري مجاهدا في جيش المسلمين المتجه نحو القسطنطينية وهو يتلو قول الله تعالى: (انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا)، ويقول: لا أجدني إلا خفيفا أو

ثقيلا. وعندما حاصر المسلمون تلك المدنية التي بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتحها في الحديث الذي رواه أحمد والبزار عن بشير الخنعمي أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لتفتحنّ القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش)[21]. .

مرض أبو أيوب وأحس أن أجله قد دنا وقد جاءه أمير الجيش زائرا وسأله عن حاجته، فقال: (نعم إذا أنا متُّ فاركب بي ثم تبيع في أرض العدو ما وجدت مساغا فإذا لم تجد مساغا فادفني ثم أرجع، فلم مات ركب به ثم دفنه)[22].

٣) الصحابية جليلة أم حكيم بنت الحارث:

هي أم حكيم بنت الحارث بن هشام المخزومية زوجة عكرمة بن أبي جهل. وقد كانت هذه الصحابية الجليلة سبباً في إسلام زوجها الذي فر إلى اليمن بعد فتح مكة، فأسلمت أم حكيم رضي الله عنها وطلبت الأمان لزوجها عكرمة فأمّنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فرحب به النبي (صلى الله عليه وسلم) قائلاً (مرحباً بالراكب المهاجر) وخرجت أم حكيم مع زوجها عكرمة للجهاد في معركة اليرموك حيث استشهد عكرمة في مشهد عجيب من الفدائية والتجرد .

واصلت أم حكيم جهادها رضي الله عنها وتزوجت من الصحابي الجليل خالد بن سعيد بن العاص أحد السابقين الأولين ومن مهاجري الحبشة. ولما كانت معركة مرج الصفر دخل خالد وزوجته وأولم حتى الصباح وما أن فرغوا من الطعام حتى كانت المعركة قد بدأت فاستشهد خالد رضي الله عنه فشدت أم حكيم عليها ثيابها وأن أثر الحلوق عليها، فقاتلت مع المسلمين وقتلت بعمود الخيمة سبعة من الروم.

رضي الله عن أم حكيم وعن زوجها عكرمة بن أبي جهل وخالد بن سعيد وصلى الله على سيدنا محمد .

المحور الثالث : بناء الدولة:

من أخلاق العلماء

لقد اختار الله –عز وجل– العلماء ليضع في أعناقهم أثقل الأمانات، فكلفهم بمهمة الأنبياء والصالحين قائلا: {ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون} (آل عمران: ٧٩).

وقلدهم الله أخطر الأمور وجعلهم بمنزلة المجاهدين في سبيل الله؛ مصداقا لقول النبي –صلى الله عليه وسلم– فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: "من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه، فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جاءه لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره."

ويمتحن الله –عز وجل– العلماء في علمهم وما عملوا به، وابتلاهم في شأنهم؛ هل قصدوا بعلمهم هذا وجه الله تعالى أم لا؟!!

وما يحسم إخلاص هؤلاء العلماء لخدمة الدين والبشرية والكون: هل تعلموا العلم لينالوا به شرفا في الدنيا، ومنزلة في قلوب الخلق، وجاها عند الوجهاء وحسب؟ وهل طلبوا بعلمهم الدنيا أم الآخرة؟ وهل العلم بالنسبة لهم وظيفة يتكسبون من ورائها المال، أم هو رسالة أوجب الله عليهم توصيلها لأهلها؟.

يقول أبو يوسف صاحب أبي حنيفة: "يا قوم، أريدوا بعلمكم الله؛ فإني لم أجلس مجلسا قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم، ولم أجلس مجلسا قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتضح."

وينبغي للعالم أن يتخلق بكل خلق حسن، فيكون زاهدا في الدنيا جاعلا إياها في يده لا في قلبه ولا عقله؛ ليحافظ على هيبته ودينه ومكانته، فلا يطمع إلا فيما في يد الله، ولذلك وصى الحبيب محمد –صلى الله عليه وسلم– الرجل الذي طلب منه أن يدله على عمل إذا عمله أحبه الله وأحبه الناس بالزهد، فقال له" :ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس" (حديث صححه السيوطي. **ويقول الشافعي:**

أمتُّ مطامعي فأرحت نفسي فإن النفس ما طمعت تهون
وأحييت القنوع وكان ميتا ففي إحيائه عرض مصون

وقار العلم

ومن أخلاق العالم أن يكون طليق الوجه، حليما صابرا، ملازما للورع والتواضع والوقار، وأن يتجنب ما يذهب المروءة ويزيل الهيبة؛ مثل كثرة الضحك والمزاح، وأن يحافظ على مظهره الخارجي، ويهتم بنظافة جسمه، ويستعمل الطيب، ويحسن من هندامه وملابسه، ويهتم بتسريح شعره، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم" :إن الله جميل يحب الجمال" (أخرجه مسلم.

ويجب الابتعاد كل البعد عن الحقد والحسد والإعجاب بالنفس. ويحرم على العالم أن يغتر بثناء الناس عليه؛ وإنما يتواضع وينشغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره .وهناك فارق كبير بين التواضع وبين التبذل من أجل المال؛ فالعالم عزيز النفس وإن كان ذا مال قليل، كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من تواضع لله رفعه الله، ومَن تكبر وضعه الله"

وقال الإمام مالك –رحمه الله– لهارون الرشيد: "أدركت أهل العلم يؤتون ولا يأتون، ومنكم خرج العلم وأنتم أولى الناس بإعظامه، ومن إعظامكم له ألا تدعوا حملته إلى أبوابكم."

ويحرص العلماء على تحصيل العلم وإن اقتضى سفرهم إلى البلدان التي فيها أهل العلوم والتخصص؛ وذلك بهدف الانشغال الدائم بالعلم النافع، واستحضاره، واستذكاره، والتعمق فيه، ومطالعة التخصصات القريبة حتى يتحقق التميز المطلوب لعز الإسلام والمسلمين.

الكبر(التقدم بالعمر) والحياء

ولا يستنكف العلماء عن التعلم ممن هو دونهم في المنزلة أو السن أو العقل، وإنما لهم في كل شيء عظة وعبرة وفكرة.. قال سعيد بن جبير رضي الله عنه: "لا يزال الرجل عالما لما تعلم، فإذا ترك العلم وظن أنه قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل ما يكون". وقال الإمام النووي رحمه الله: " كان كثير من السلف يستفيدون من تلامذتهم ما ليس عندهم."

وقد أرشد النبي –صلى الله عليه وسلم– العلماء إلى التعلم ممن هو نظير، وممن ليس بنظير، وألا يمنع الكبر أو الحياء من التعلم ممن هو أقل في المنزلة، فجاء إلى أبي بن كعب –رضي الله عنه– وقال: "أمرني الله أن أقرأ عليك لم يكن الذين كفروا" (رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

وليس من المعقول أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قرأ على أبيّ ليزداد حفظا وإتقانا، وإنما المقصود هو تعليم الأمة بطريق القدوة.

وما خبر سماع سليمان -عليه السلام- من الهدهد ببعيد: {أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين} (النمل: ٢٢). وهذا يفيد انشغال العالم الراسخ فيما ينفع نفسه وأهله ومجتمعه ووطنه، بل ما ينفع البشرية من علوم، فلا ينفك يستزيد من العلم ويتعمق فيه لتكون مساهماته أوقع وأنفع.

ومن أخلاق العلماء الراسخين : ألا يحبسوا العلم وإنما يبذلونه لأهله، ويعلمونه لمن صدقت نيته في تعلمه، ويحرصون على إحياء العلم بالعمل به، والبحث عن الأبناء الصالحين الصادقين في طلب العلم لوجه الله تعالى فيهتمون بأمر تعليمهم؛ لكي ييسروا لهم النبوغ في العلم مع العمل، ويخوفونهم من الجرأة على الفتوى؛ فإنها من علامات الجهالة والمتسرعين.

خير قدوة

ومن اخلاق الحسن البصري رحمه الله؛ حينما جاءه العبيد وطلبوا منه أن يكلم الناس في خطبة الجمعة عن فضل عتق الرقاب؛ إذ كان الناس وقتئذ يقبلون منه ما لا يقبلون من غيره من العلماء. ولكن البصري قام في الجمعة الأولى فلم يتكلم في هذا، وفي الثانية لم يتكلم، وفي الجمعة الثالثة تكلم فأحسن في فضل عتق الرقاب، فخرج الناس من المسجد فأعتقوا من كان عندهم من الرقيق، فجاء الرقيق المحررون لوجه الله تعالى يشكرون الحسن ويقولون: "أبطأت علينا ثلاث جمع، فقال: لقد انتظرت حتى رزقني الله مالا، فاشتريت عبدا وأعتقته لوجه الله تعالى؛ حتى لا آمر الناس بما لم أفعل."

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فلاح